أرجوكم افهموني

بقلم/ حاتم إبراهيم سلامة

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى كل من تغلب على هواه وارتضى الإنصاف خلقًا ومنهجًا يسير عليه في الحياة، أهديه إلى كل من أدرك نعمة العقل في نفسه فسما بها وعمل على تزكيتها بالتعليم والمعرفة وتحصينها بالوعي والفهم.

مقدمة

كثير من الأفكار التي تجد فيها من يختلف معك، وإذا أحزنك هذا.. فلتعلم أن عقلك لم يرتق بعد، ولم تتمكن منك ثقافة الاختلاف، لكن المؤلم أن تجد من يختلف معك وهو لم يفهمك، أو يستوعبك، أو يحسن القراءة لك، ساعتها تشعر بغصة في النفس، وضيقًا في الحياة، ومرارة في القلب.

ويأتي الفهم كأولى النعم التي يمن الله بها على الإنسان، والذي هو منحه العقل.. أفضل ما خلق الله للبشر، فإذا خسر الإنسان هذا الفهم، فقد خسر العقل، ولم تؤتي هذه النعمة الكبرى ثمرتها اللازمة لها، واللائقة بمقامها في ذاته، ومن ثم يجب على الإنسان أن يؤمن أن الفهم ليس هبة يخص الله بها قومًا دون آخرين، وطائفة دون طائفة، وعقلا دون عقل، فالفهم يمكن للإنسان أن يحصله بالمران والدربة، وتحريك آلة العقل وانتشالها من الركود والخمول، وصحبة المفكرين والمُمحصين وبعيدي النظر، ليلتقط الإنسان منهم هذه المواهب، التي تنمي دائرة وعيه وإدراكه، كما نؤيد أن الفهم غير الذكاء، الذي نؤمن فيه بالتفاضل من شخص آخر، كما لا ننكر أن الذكاء يساعد الفهم كثيرًا في بلوغ مراميه، ولكنه شيء آخر غيره، فكم رأينا أنسًا شديد ذكاءهم، لكنهم لم يبلغوا درجة الفهم التي يمكن تحصيلها بطرق كثيرة غير الذكاء.. لأننا ننشد الوعي والرقي في التفكير، وهي أمور تكاد تكون من مكملات الأخلاق، التي ينشأ عليها الإنسان في بيئته وحياته وسلوكياته.

وإننا لا شك نشعر بخسارة كبيرة في المجتمعات التي يغيب عنها الفهم السليم في تقييم الأمور ووزن الأحداث، وحينما تفقد هذه المجتمعات الوعي اللازم، فإنها تكون في خصام دائم مع المعالي والرقي، الذي يدفعها إلى التميز والسمو، ومن ثم وجب على أهل الرشد فيها أن يقوموا بواجبهم الكبير، في ترقية العقول والأفهام، بالدرس والشرح والتعليم المتواصل، حتى يستوعب الأشخاص معالم النهوض وسبل التفوق.

يتسرع دومًا أولئك الذين يظنون أنفسهم أنهم مثقفون، يتسرعون دومًا في الحكم و الرأي والانطباع، فيظلمون المواقف والأشخاص بتصوراتهم المغلوطة وعقولهم المأفونة، لأنهم لم يتلقوا أصول الفهم، ويدركوا أهميته في الحياة والمعرفة، ويؤمنون بأن كل شيء في الظاهر، يمكن أن يكون له بعد آخر في الباطن، وأن النصوص الحرفية، لها روح أخرى، أكثر دلالة نحو توجهات مغايرة، تتخفى على ظنونهم.

ومن هنا كانت هذه الصفحات التي تدعو قارئها إلى التفكير في كل الظواهر والقضايا التي يتعرض لها الفكر، ومحاولة والبحث فيما وراءها من تصورات أكثر تعبيرًا، وأليق مواءمة، مع الروح التي تتطلبها ثقافة الاختلاف، التي إن تجرد منها عقل، كان وبالا على الحياة، وإن تجرد منها مجتمع، إلا وتصارعت فيه العقول، وكانت كمرجل يغلي على النار، فيبيت على خصومة، ويصبح على حروب تنمي الاختلاف، وتزكي أواره، ولا تعرف سبيلا إلى التوافق الذي ترتقي به الأمم.

حاتم إبراهيم سلامة

خناجر الماضي

اليوم تحديدًا وعلى صفحات بعض الأصدقاء، رأيت تشبثا كبيرًا بالماضي، وتعييرًا فجًا لأصحابه بما سلف لهم من أخطاء أو آراء أو مواقف.

إنهم يستوحون ويؤمنون بكلمات (نجيب محفوظ) ويطبقونها عمليًا حينما قال: (الماضي الذي يتوارى بمكر أحيانًا كاللص، ولكنه لا يموت، ثم يبعث بغير دعوة ولا رغبة)

لقد قام أحدهم ونشر مقالا قديمًا في صحيفة الدستور للأستاذ (محمد القدوسي)، تحت عنوان (مصر المغسولة بعطر عبد الناصر) وقال عنه معلقًا: (ياريت اللي يقابل الأستاذ محمد القدوسي في تركيا ولا قطر، يبقى يفكره بالمقال ده)

وكم كنت أتمنى أن أقرأ المقال، لكن صورته كانت باهتة، وخطه غير واضح، ولا يظهر منه غير العنوان وصورة عبد الناصر، ولكن غرض الصديق كما يبدو من كلماته، كان واضحا جدا جدا وغير متواري، فهو يريد أن يظهر القدوسي بأنه منافق لا مبادئ له، ويفعل اليوم ما كان ينكره بالأمس، أو أنه كان يطبل للظالمين، ويسبح بحمد الديكتاتورية، أو شيء من هذا القبيل.. تماما كما فعل بعض الأصدقاء، حينما تحدثت عن كتاب (ثورة يوليو الأمريكية) للراحل الكبير (محمد جلال كشك) فأسرع وبحث في بطون الصحف، ليناولني مقالا قديمًا لجلال كشك، يُثني على الحقبة الناصرية، ويمجد زعيمها.

وأريد أن أقول: إن المفكر أو العالم يمكن أن يكون له رأيان، قديم وحديث، لكنه نادرًا ما يكون له ثلاثة آراء، هنا فقط ومع التغيرات الثلاثة، يمكن لك أن تتهمه بالنفاق والتريب وقلة الاتزان والتشكيك في مصداقيته وكلمته ومبادئه، أما أن يكون على مبدأ ثم يخالفه في الغد، فما يمنع أن يكون قد اتبع الحق، بعد أن تكشف له رسوب الضلال، وأوحال ما كان غارقًا فيه من أوهام وضحالات.؟

بعض هؤلاء الناس أخشى أن يطلع علينا يومًا وقد جمع أحدهم بعضًا من الحجارة والتماثيل، ليقول لنا، هذه الحجارة والتماثيل التي كان يعبدها عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وزعيم الموحدين، يا من ترفعونه للسماء وتباهون به الدنيا في عدله وخوفه من الله...لقد كان من عُباد الأحجار.! نعم لا أتعجب أن يخرج أحدهم ليقول ذلك، لأننا في زمن أُصبنا فيه بعلل مزمنة في الفهم والوعي والادراك.

لقد كان جلال كشك في باكر حياته ماركسيًا ثم هداه الله، وكذلك الدكتور محمد عمارة كان ماركسيا ثم صار بعد من أعظم مفكري الإسلام والمنافحين عنه، حتى أن شيخنا الغزالي قال عنه: محمد عمارة قلعة من قلاع الاسلام في القاهرة، وكذلك دكتور مصطفى محمود، كان من الملحدين حسبما قيل عنه لكن الله تعالى كتب له الهداية..

واستطاع هؤلاء جميعًا أن يقدموا لفكرهم الجديد، إضافات وإنجازات ملموسة ومشرفة، فهل نردها لأنهم من قبل كانوا من أعدائها؟

لماذا لا نستر هذا التاريخ الذي قد يشوش على أصحابه ونخفيه، حتى تظل صفحتهم مضيئة بواقعهم المشرق؟ أم أننا نصر أن نهدم كل خير وكل أمل.! مع علمنا اليقيني بأن توبتهم تجب ما قبلها، لكن جهل البعض بهذه التوبة يخيل لهم أنهم متناقضون أو منافقون.

ربما لهؤلاء الأصدقاء بعض العذر لقلة ثقافتهم أو لباعهم القصير في القراءة والمعرفة، لكن المفجع فعلا حينما تطالعك صفحة كاتب كبير، وقد نقل مقالا لوقعة قديمة للشيخ الشعراوي في مجلس الشعب، حينما كان وزيرا للأوقاف، وجرت بينه وبين النائب عاشور مشادة كلامية، حيث قال الشعراوي عن السادات: " والذى نفسى بيده، لو كان لى في الأمر شيء لحكمت للرجل الذى رفعنا تلك الرفعة، وانتشلنا إلى القمة، ألا يُسأل عما يفعل»- مشيراً إلى الآية" لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ "، فصفقت الأغلبية، إلا أن هذا الكلام لم يُعجب الشيخ عاشور نائب الوفد،

فصاح في وجه «الشعراوي» قائلاً «اتقِ الله يا رجل، اتق الله، مفيش حد فوق المساءلة، يجب أن ترعى الله في كلامك».

ورد عليه الشيخ الشعراوي بغضب وتجهم وقال: «اجلس، اجلس، أنا أعرف الله أكثر منك وخيراً عنك»

المهم أن الكاتب ذكر في نهاية المقال هذا الكلام المنقول، والذي طبعًا يعد نقله له تأييدًا له وهو يخاطب القارئ، ليجري عملية إسقاط على الأزمة الأخيرة في الهجوم على الشيخ: "استسمحك أن تضع بنفسك وصفًا للشيخ الشعراوي في هذا الموقف.. لا قدسية لبشر يصيب هنا ويخطئ هناك.. ولا عصمة إلا لرسول."

وللأسف.. مازلنا في هذا الإشكال من الفهم والعجز العقلي الكبير عند الكثيرين، حول فهم وتفسير مسألة التقدير ومسألة العصمة والتفريق بينهما، وأرى هناك عجزًا مهولا في التفريق بينهما، فنحن حينما ندافع عن قدوة وعالم وزعيم، يكون دفاعنا منبثقا من باب التقدير والتكريم، وهو الذي يظنه الواهمون تقديسًا فينطلقون للغو الفارغ، الذي يظنون معه أنهم دعاة التنوير وتحرير العقل من عبودية البشر، ولكن بعيدًا عن هذا كله نقول لكاتبنا: ماذا لو كان الشيخ الشعراوي قد أخطأ وتاب وأناب، وهو ما يؤيده حاله فيما بعد كرجل أعلن استقالته من الحكومة، وطلق المناصب طلقات ثلاث؟ هل نعيره بما مضى؟ وهل حينما ندافع عن شيخ نحبه له قدره لمقامه ومكانته الدينية وخدماته للإسلام نكون قد قدسناه ونسبنا له عصمة الأنبياء؟؟

ما هذا الفهم الأعوج والمنطق المنحدر؟

إن التركيز على السلبيات، والتغاضي عن الإيجابيات والحسنات، والمعايرة بالماضي الذي ينكره حاضر الإنسان، خصلة وعمل لا يفعله إلا أناس يجافون الإنصاف والحق.

المراجعات المائعة

يتفاوت أهل الفكر في عزائمهم وحماسهم وتقييماتهم من شخص لأخر، حسب التربية والنظر والدين والصدق مع النفس والتحرر من المقيدات والظروف والضغوط، خاصة تلك التي تواجههم إذا ما قرروا أن يغيروا أفكارهم ورؤاهم ومذاهبهم.

ربما تتوغل في فكر من الأفكار، أو مذهب من المذاهب، وبعد فترة من الزمن، ومع مزيد من المعرفة والاطلاع، يتبين لك أنك مخطئ، وأنك لم تكن على صواب، وأنك كنت على شاطئ الحقيقة، لم تتوغل بعد في بحرها العميق، الذي تدرك منه كنهها وغايتها.

بعض الناس يُسمي هذا تطورًا طبيعيًا للمثقف، لكنني أعتبره هداية وردة عقلية للحق، وبصيرة يمنحها الله تعالى لهذا المثقف الذي انحرف كثيرًا في تصوراته، ولو كان الأمر على ما يصفونه بالتطور، لكان كل من ولج دنيا الفكر على هذا الشطط، وهذه الجفوة للحق والحقيقة والصواب وإنصاف الخيارات الصادقة المتزنة.

نعم ولانقسمت كل دنيا المفكرين إلى قسمين حسب مفهوم التطور المعرفي، قسم قبل الإحاطة الثقافية الكاملة، وقسم بعدها، ينكر فيه صاحبه ما كان يتبناه بالأمس، لكن ارتصاص الكثيرين من المؤيدين للحق من أول يوم في ميدانه، يرفض نظرية التطور، ويؤكد أن هداية الله شملتهم في ابتدائهم.

الراحل الدكتور محمد عمارة، شاءت له الأقدار أن يرتمي في أحضان الماركسية لظروف بررها، وبلغ الرجل من مراتبه فيها أن كان من فرسانها الكبار، لكن الله تعالى أراد به الخير، فانحرف مساره إلى الانتصار للإسلام والدفاع تعاليمه وقيمه، التي تخاصمها الماركسية، ومن هذا الإعلان وهذا التحول، لم يخش الرجل على مكاسبه ومقدراته التي حققها، ولم يخش على مستقبله المرتقب

الواعد في هذا الطريق، لأن الحق عزيز في نفسه وأحق أن يتبع، وخرج ليعلن على الدنيا كلها، براءته مما كان عليه بمؤلفات وكتابات تمحوا ما سلف له من سطور خطها في خندق الماركسية!

الكاتب الألمعي خالد محمد خالد، طنطنت له الدنيا كلها حينما أصدر كتابه من هنا نبدأ، وفرح به الماركسيون كثيرًا وكرموه في المحافل والندوات والمنتديات، وتحدثوا عن كل سطر في كتابه، وتفاخروا به خاصة لكون الكلام، صادرًا من شيخ أزهري، أي وشهد شاهد من أهلها! فلما منّ الله عليه بالبصيرة والرجعة، لم يتردد خالد في إعلان اعتذاره وبراءته من أفكاره، وكان عنيفًا في انتصاره للحق، شديدًا في رفضه للباطل، وأصدر كتابه الشهير (الديمقراطية في الإسلام) الذي كفَّر به عن كل ما قدم من أفكار في كتابه الأول من هنا نبدأ، ولم يفكر في ضياع المكتسبات التي حققها، والمكانة التي ارتقاها، وأنعم بها عليه من خاصموا ملتهم وتنكروا لتراثهم.

وأمام ما رأينا من عمارة وخالد، كانت هناك صور مقابلة، لبعض المفكرين والأدباء، الذي غيروا من آرائهم وأفاؤوا إلى الحق بعد نزوغ طويل، لكنك أمام هذه الرجعة تكون حائرًا، لأنها تكون رجعة مواربة، وغير مباشرة، أو بمعنى آخر، لم يكونوا كهؤلاء الفرسان الذين خرجوا على الدنيا كلها معتذرين عن أفكارهم متبرئين منها، بمؤلفات ومقالات ومحاضرات، لقد كان كل ما فعلوه فقط، هو رفضهم أن تطبع كتبهم مرة أخرى ، والرد على من سألهم عن أفكارهم القديمة، بردود كما قلت مواربة أو باهتة لا تستوضح منها شيئًا، ويمكن أن تؤول بتصورات مختلفة، وظنون متعددة، فطه حسين الذي يعده العلمانيون ودعاة التغريب رائدهم ورمزهم، كانت له توبة ورجعة، واستطاع راحلنا المغوار الأشم دكتور محمد عمارة، أن يستوضح هذه الرجعة، ويدلل عليها في كتابة الفذ (طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام) لكننا ومع هذا البيان، لم نجد لطه حسين عزيمة الأبطال وجرأة الأحرار، في التبرؤ مما كان عليه، كأن يخرج على الملأ معتذرًا، أو يصدر كتابًا خاصًا، يتنكر فيه لماضيه، ويكون براءة قوية وحجة عصية له أمام الله تعالى.

انظر مثلا إليه في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) والذي طبع عام 38 وكان أكثر كتبه انبهارًا بالغرب وحضارته، لقد ظل محجما عن طباعته مرة أخرى، وحينما سئل عنه قال : " ده كتب سنة 36 ، قدم أوي وعاوز يتجدد، ويجب أن أعود إليه، وأصلح فيه بعض حاجات وأضيف" ورغم أن شيخنا عمارة، اعتبر هذا الكلام من طه على أنه تغيير لرأيه، إلا أنه والحق يقال: لم يكن فيه الوضوح الكافي الذي يجعلنا أو يجعل غيرنا على يقين من هذا، ولعل ما فعله طه في كتاب الشعر الجاهلي حاضرًا في تصورنا، فقد أعاد طبعه باسم آخر، وهو (في الأدب الجاهلي) وحذف منه العبارات القاسية الصادمة، والسطور التي شكك بها في المعتقدات الإسلامية الواردة، وهو عمل محمود وطيب، لكننا كنا نريد بطولة الآيبين للحق، وعزيمة تهد ما سلف، وبراءة تنكر ما كان، وهو نفس ما فعله علي عبد الرازق في كتابه الإسلام وأصول الحكم، حين اكتفى ببعض إشارات لتغيير رأيه، ومنع طباعة كتابه مرة أخرى.

ولعل القوم هنا كانوا يخشون على مكانتهم ومكاسبهم التي حققتها لهم آراءهم المخالفة للصواب، ولعل ضميرهم كان مستريحًا لمجرد استنكار أعماقهم لها دون المجاهرة والإعلان، أو تصوروا أن البراءة مما كان ينتحله المرء من فكر سالف، خرق للمروءة وشين للعقل، وحالة لا تليق بمفكر مسموع الكلمة مرموق المكانة.. والله أعلم.

اللعب بورقة الهوية

كانت مناسبة نقل المومياوات التي جلجلت لها مصر، مناسبة لا شك مبهجة وجميلة ومفرحة، لكنها لفتتنا إلى شيء مهم جدا كان قرين الحديث عن المناسبة الكبيرة.

يظهر بوضوح لكل ملاحظ ومتأمل، أن حقد العلمانيين والملحدين تجدد أو تأجج على الإسلام والهوية الإسلامية، وظنوا أن الظرف والمناسبة تخدمهم أمام ما نردده مرارا وتكرارا من أنه – أي

الإسلام- مكون أساس من مكونات الشخصية المصرية، ودين الدولة الرسمي، ولغته هي لغتها الأولى، وقرآنه هو كتابها المقدس.

نعم لقد كان حادث نقل المومياوات، فرصة ذهبية لكثير من العلمانيين، في محاولة خبيثة ومفضوحة ومكشوفة، ليوجدوا صراعًا بين الإسلام والفرعونية، التي هي حضارة مصر القديمة، ليلبسوا على الناس أن الإسلام عدو لمصر، وأنه ليس هويتها الأصيلة التي تعبر عنها، وعلى المصري أن ينتمي لحضارته وجدوده وأصوله، لا أن ينتمي لدين وافد ودخيل عليه.

وهذا المنطق يمكن أن ينطلي على فئة واحدة فقط، وهي الفئة التي تتنكر للدين، وترفض وجود الألوهية، يمكن لهذا الكلام أن يؤتي أكله عل أمثال هؤلاء، لكن مصر المسلمة المتدينة التي يعلو في سمائها صوت الأذان كل يوم خمس مرات، لا يمكن أن يجري عليها هذا الهراء والتلبيس.

ما المشكلة أن أكون فرعونيًا، وتنتمي جذوري للفراعنة، وهذه حقيقة واقعة، فهم الجدود والسلف القديم لهذه الأمة الحاضرة، ولكن هل يعني هذا.. أن الانتساب لهذه الحضارة، يلغي الإيمان والإسلام في الاعتقاد والانتماء؟

أعتقد أن من يحاول إثارة مثل هذا التصور، إنما يقوم بعملية تهريج ولغو فارغ.. لقد أسلم سلمان الفارسي، فهل ألغى الإسلام نسبه وجنسه، وأسلم بلال الحبشي، فهل تنكر الإسلام للونه وأصله؟ كانت الأسماء المطروحة يقبلها الإسلام مع الاحتفاظ بجذورها، فلا عيب ولا منكر في ذلك.. كان هناك.. سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي.

لا تعارض إذن ولا نكران في الإسلام لهذه الجذور، لأن الإسلام شيء أكبر من المقارنة، ومجرد وضعه في كفة مع حضارة سالفة وزمن قديم، عبث هزيل، لأن الإسلام دين ومعتقد وسلوك وأخلاق ومنهج ومعاملات وعبادات وروحانية وقيم وفضائل ومنظومة كاملة تدير الحياة وتجعل المسلم منقادا لله..

عادي جدًا، تباهي بالفرعونية وتباهي بالبابلية، وتباهى بالساسانية، لكن أن تقول هويتي فرعونية، فهذا خطل، لأن ما تركوه من أثر لا يرقى لأن ينافس الإسلام في كونه هوية.

فرق هائل بين دين جاء من رب العالمين، أنار ظلمات الحياة، وبين آبائك وأجدادك الذين تعتز بهم.

أريد أن أقول: إن المسألة لا ترقى حتى لوضع المقارنة، وليس فيها أي مجال للتفاضل، فلا يلتفت إلى هذا، إلا قوم يحقدون على الإسلام ويحاولون أن يوقظوا في قلوب المصريين كل ما يسبب سخطهم على دينهم، وهذا محال في بلد تضج عاصمته بألف مئذنة، لا بألف مسلة فرعونية.

قام مؤخرًا أحد العلمانيين المتطرفين، يصور للقراء أن الإسلام وفقهائه، اتهموا الفرعونية بالكفر والوثنية، وحاولوا هدم الهوية المصرية.. لكن أحد النابهين رد عليه بقولة ضاربة مفحمة فقال:

"الإسلام لم يطمس الهوية المصرية، بدليل أن الآثار الفرعونية بقيت على حالها لأكثر من 1400 سنة دون أن يمسها أحد.. فلم يبن مسجدًا على معبد.. ولم يهدم تمثال لأنه من الأصنام.. المشكلة فيك وليس الإسلام نفسه.. اعدلوا هو أقرب للتقوى."

ولكن أني يكون هذا العدل من قوم يفترون على دين الله.

لا يفوتني أن أذكر بأن طه حسين من أوائل من أحيا هذا التصور المقيت المرفوض، وأحيا هذا الصراع الواهي الموهوم، وكان قوله الشهير المقزز: لو كان الإسلام حائلا بيننا وبين فرعونيتنا فعلينا نبذه.

الإسلام لا يمنع أبدًا أن يعتز المسلم بأصوله وماضيه، لكنه يرفض أن يكون داعية للعنصرية والتباهي على خلق الله.. كما أن التراث الفرعوني مجرد آثار ومشاهد وبعض مايشير إلى التفوق المعماري والحضاري، لكن لا يمكن أن ترقى آثارهم لأن تكون الأخلاق والعقيدة والسلوك

والتعاليم، التي تهذب الروح وتهدي الحيارى كما فعل الإسلام.. فأي الأمرين يستحق لقب الهوية.

والدولة حينما احتفلت بهذا الحدث، لم تقل للناس أن دينكم فرعوني، والفراعنة آلهة مصر، وإنما هو مجرد عمل يخدم السياحة وموارد الدولة.. أما الذين يحاولون إنشاء معركة لطعن الإسلام باسم الوطن وهوية مصر، فهي محاولة بائسة يائسة، لأن الإسلام في قلوب المصريين، والدولة كما تهتم بآثار الفراعنة، تهتم بالآثار الإسلامية وتحيي الحفلات في المناسبات الدينية..

رجاء.. ابتعدوا عن خديعة الوطنية، واللعب بورقة الهوية.

وأحب أن أقول لكم أيها العلمانيون:

ستظل الكعبة المشرفة أعظم مكانة في قلوب المصريين من آلاف المعابد الفرعونية، وسيظل الجسد النبوي الشريف في المدينة المنورة، أعظم وأكرم وأرقى وأثمن في نفوس المصريين، من ألف ملك وملك من ملوك مصر القديمة، وسيظل القرآن الكريم أرفع وأطهر وأسمي في نفوس المصريين من نقوش الفراعنة على جدرانهم... فقولوا لي بالله عليكم: عن أي هوية تتحدثون؟

ولايمنع هذا أن نقدر في ذات الوقت حضارتنا القديمة ونبتهج بتاريخها وتراثها، خاصة إذا كان له دخل في بناء مصر الحديثة، كمورد من أهم مواردها الفاعلة القوية والداعمة لمستقبل مشرق وغد أفضل.

أرجوكم ارتقوا بأفهامكم

عجيب أمر كثير من الناس، ومدهش ما أراه من عقولهم، إنهم لا يتصورون أبدًا أن يجتمع المدح والذم في وقت واحد، وفي شخص واحد، وعلى لسان واحد.!

إنهم يعتبرون ذلك خرقًا لنواميس الكون، وخللا في الفكر والتصور والتقييم والرأي، ثم ينتقلون من هذا التصور والاعتبار، إلى اتهامي بالتناقض والتردد والتذبذب والاختلاف، حينما أرمي بهم

في مثل هذه الوديان، وغاب عنهم وهم مستنكرون، أن التناقض صفة أصيلة في دنيا الإنسان ولصيقة دائمًا بكل شؤونه.!

ولكنني أمام ما يتهمونني به، لا أنتسب إلى التناقض في شيء، لأنني أؤمن إيمانًا قويًا أن كثيرًا من البشر، قدموا ما يستحقون عليه المدح، وفي ذات الوقت، قد قدموا ما يستحقون عليه الذم!

فلا تبتئس مني أخي القارئ، لو ذكرت لك يومًا عيبًا في عالم أو أديب أو مفكر، وقد ذكرت لك من قبل ما أمدحه به أو أثني عليه فيه، فلو فعلت أنا ذلك، ووقعت أنت في شرك الاستغراب، فإنك بهذا تُدلل على ضيق أفقك، وقلة وعيك، وسوء تقديرك.

فليس هذا عيبًا أو منكرًا أو خطأ وقع فيه قلمي، أو تناقضًا ضجت به أفكاري، وإنما العيب كل العيب فيك أنت.

كتبت مرة مقالا تحت عنوان(مذبحة الشوقيات) عبت فيه تلك الجريمة التي قامت في العهد الناصري، حينما طبعوا ديوان الشوقيات لأمير الشعراء أحمد شوقي، وقد حذفوا منه بعض القصائد التي لا تروق لهم، ولا تتماشى مع أفكارهم وميولهم، وصورت يومها حقيقة شوقي بأنه تراث أثير، يجب احترامه وتعظيمه، وأنه مفخرة هذه الأمة، فكيف يتم التجني عليه بهذا الشكل المريع.؟!

وبعد ذلك أتبعته بمقال آخر، ذكرت فيه سقطة أمير الشعراء، حينما تماشى مع أهواء القصر والانجليز، إذ ألف ثلاث قصائد هجى فيها الزعيم أحمد عرابي وسخر منه، حتى يهون في عقول الناس ثورته وزعامته للحركة الوطنية وكفاحها الكبير.

وكان منها بيته الشهر :

صغار في الذهاب وفي الاياب ** أهذا كل شأنك يا عرابي!

وحيال هذا الطرح قام أحد القراء ممن لا تقبل عقولهم ولا تستوعب، إلا أن تسير في اتجاه واحد، وترفض رفضًا قاطعًا أن يكون الإنسان الواحد قد صدر منه الخير والشر معا، فهم إما خير محض أو شر محض، لا يقبلون بأنصاف حلول، أو اختلاف في المواقف، فإما أبيض أو أسود.!

وإذا بهذا القارئ النجيب يقول لي بعد أن قرأ عن سقطة أمير الشعراء مستنكرًا طرحي السابق: إذن عبد الناصر كان عنده الحق فيما فعل!

لم أعرف كيف أجيب، وبماذا أرد! لأن الأمر يطول شرحه، ويستدعي رحلة طويلة من القراءة والفهم، حتى يستوعب هذا العقل ما أقول.

ما الذي يمنعنا أن نعيب شوقي، في ذات الوقت الذي نعده فيه أمير الشعراء، ونثني عليه، ونمثله مفخرة العرب، وتراثا عظيما لأمتنا يجب احترامه وتقديره، والحرص عليه وتجريم العدوان عليه؟!

تلك حياة رجل، وهذه آثاره، ونحن مأمورون أن نتعامل معها على ما كان منها، ولا يعني هذا أبدًا أنه خطأ يؤهلنا ويسمح لنا أن نجور عليه ونمحوا كل أفضاله، وكأننا نقول له:

نحن آسفون لك فلن نستطيع أن نمدحك أو ننصفك لأنه قد ثبت عليك تهمة وذنب من الذنوب، ووزر من الأوزار!!

في الحقيقة هذا منطق غريب عجيب، ولا أعرف كيف يفكر أصحابه!

نفس التجني والاتهام بالتناقض حينما أعيب العقاد أو طه حسين، في بعض الأقوال والأفعال والمواقف، ثم أمدحهم في مقالات أخرى أمام أحداث قادوها ومروا بها، مما تسبب من أزمة عنيفة لعقول بعض الناس، تركتهم في حيرة مفزعة، هل هذا الرجل خير أم شر، ممدوح أم مذموم، على خطأ أم على صواب؟.

ثم ينتقلون من هذه الحيرة إلى اتهامي بما سلف من أنني متناقض القول والطرح وربما الفهم.

والحقيقة أنهم هم الذين يستحقون أن يتحير المرء من أمرهم وأفهامهم، وضيق تصوراتهم، حينما غاب عنهم أنني بهذه الطريقة، أحيي خلق الإنصاف، وأناصر الحق وحده، دون عصبية لأحد، أو عاطفة تميل إلى الكره أو البغض.

بعض الناس يشعرونني حينما أكتب لهم ويقرؤون لي، أنني على بعد مسافات عنيفة من خطابهم والكتابة لهم، بل يشعرونني بالجريمة حينما عزمت على طرح أفكاري عليهم، وفي ذات الوقت لا

أستطيع أن أمنعهم من القراءة لي، لكن يمكن لي حتى أتجنب هذه الصدمة العقلية التي تصيبهم، أن أمتنع عن الكتابة وأُخرس قلمي.

إنني أعلن سمو فكري، بأنني لست من هؤلاء الذين إذا علموا سقطة عن رجل، داروا بها وبخنجر مسموم يهدمون ويمزقون ما سلف له من إشراقات وإلهامات أضاءت الدنيا، فهذه ضحالة عقلية نجاني الله منها.

انظر معي لسمو السلف الصالح، كيف كانوا يفهمون، وكيف كانوا يقيمون، ولم يتهمهم أحد بالتناقض والاضطراب، وإنما عرفوهم في آرائهم فرسان الإنصاف وتحري الحق.

لقد كان الإمام عبدالله بن المبارك، ممن لا يمنعهم صلاح (عباد بن كثير) وتقواه، أن ينهى الناس عن أخذ الحديث عنه، لأن الحديث مناط الدين، وفيه الأمر والنهي، والشريعة والملة، وكان ابن المبارك إذا رآه قال: (ما أدري من رأيت من عباد الله أفضل من عباد بن كثير في ضروب الخير، فإذا جاء الحديث فليس منه في شيء) وذلك أنه كان إذا حدث جاء بما ينكر عليه في الحديث الشريف.

وقال أيضا لسفيان الثوري: إن عباد بن كثير ممن تعرف حاله، وإذا حدث جاء بأمر عظيم، فترى أن أقول للناس : لا تأخذوا عنه؟ فقال سفيان: بلى، قال عبدالله: "فكنت إذا كنت في مجلس ذُكر فيه عباد بن كثير، أثنيت عليه في دينه وأقول: لا تأخذوا عنه"

وكذلك قال عن كثير من الرواة، مدح دينهم، ونهى عن الرواية عنهم، فقد قال عن بقية بن الوليد: صدوق اللسان، ولكنه يأخذ عمن أقبل وأدبر.

وقال للحسن بن عيسى: إذا قدمت على جرير فاكتب علمه كله، إلا حديث ثلاثة: لا تكتب حديث عبيدة بن متعب، والسري بن اسماعيل، ومحمد بن سالم.

لقد كان هذا منهجه رضي الله عنه، والذي أعلنه على الأمة بقوله:" رب رجل حسن، وآثاره صالحة، كانت له هفوة وزلة، فلا يقتدى به فيها"

وهنا لا بد لنا من التسجيل والإشارة إلى قوله: (فلا يقتدى به فيها) لأن كثيرًا من السطحيين، إذا علموا عن عالم أو مفكر هفوة، أسقطوه من دنيا العلم والفكر، وصاروا في حياتهم لا يتذكرون له إلى تلك الزلة التي تهدم علمه وأثره، وأنا أمام موقفه من عباد بن كثير، أتساءل: ماذا يكون لو كان

هؤلاء المأفونين في زمن عباد بن كثير، أو كان هو في زماننا؟ لا شك أنهم أمام زلته، لشنعوا عليه ورموه بالكفر والزندقة، ولأخرجوه من دنيا الفضيلة قاطبة.

نحن في أمس الحاجة أن ترتقي عقولنا وترتفع أفهامنا.

لا يكادون يفقهون حديثًا

يكون من المؤسف جدًا أن ينخدع عالم دين عن حقيقة رجل فيتخيله ملاكًا وهو شيطان، بل المصيبة الأدهى أن يكتب فيه تزكيه علنية للأمة، ويصدره للجماهير على أنه من أعلامها وبناة نهضتها الفكرية والعلمية، وما هو إلا معول من معاول هدمها وتدميرها.

هل تتخيل أن هذا المأساة قد وقع فيها عالم كبير من علماء الاسلام النابهين وثقاته المعدودين، وهو الشيخ محمد رشيد رضا، حينما طلع على العالم الإسلامي في صفحات المنار، عام 1914م برثاء جرجي زيدان حينما مات بـ 5 صفحات كاملة، يذكر فيها أن الأمة العربية، فقدت بهذا الرجل ركنًا ركينًا من أركان نهضتنا الحديثة في العلم والأدب، بعد أن نضج علمه واتسعت معارفه، وكملت تجاربه، وصار أقدر على إتقان خدمتها ومساعدة نهضتها، وإن كان أخذ عليه بعض آرائه واتجاهاته.

والعلامة رشيد له مكانة عظيمة وكبيرة، وإمام قدير من أئمة الدين العظام، وله جهوده التي كانت تعادل جهود المؤسسات الدينية الكبيرة، وقد جاء وقت وكان هو الصوت الإسلامي المسموع في العالم الاسلامي، ولعلي أسوق فيه هذه الكلمات حتى لا يظن ظان أنني أتهجم على الشيخ الكريم، أو أنال منه، وإنما غاية حديثي عن نعيه في جرجي زيدان إنما توصيف واقعي لما حدث أو نقدا ذاتيا لهذه الفعلة التي أعتبرها من هنات العلماء.

والحق أن هذه الصفحات الخمس كانت مصيبة المصائب فهي تزكية من أكبر عالم سني لأكبر متآمر على تاريخ الأمة وتراثها.. نعم تزكية تؤكد أن الشيخ رشيد كان في غيبوبة تامة عما يدبره

جرجي زيدان من تآمر على تاريخ الأمة ومسخ ماضيها، طامة كبرى حينما كان يرتبط معه بصداقة وثيقة بينما لا يكتشف بألمعيته مخططه التبشيري الاستعماري العدواني على ماضينا التليد.

وماذا بك حينما تقرأ أمة الإسلام هذه التزكية، التي تجسدت في أنكب خمس صفحات نطقت بها المنار، كيف بهم وهم يقرؤون هذه الصفحات، إلا أن يُقبلوا بقوة وكثافة على مؤلفات هذا الخبيث الذي كان يدس السم في العسل، ليدمر انطباع الأمة عن تاريخها ورجالها ورموزها العظام.

ويبدو أن كثيرين قد استطاع أن يخدعهم جرجي زيدان ببعض دعواه من الكتابة للتراث والتعصب للغة العربية، فإذا رأيته يقاتل من أجل لغة العرب فمحال أن يتسرب لديك شك بأن هذا الرجل من حماتها وفرسانها الميامين.. اقرأ معي هذا النص الذي كتبه في الهلال عام 1903م ولن تتخيل أبدًا أنه لجرجي زيدان حيث يقول فيه: " كفانا من المصائب ما نتحمله من إهمال الحكومة المصرية اللغة العربية في مدارسها، وإغفال هذه اللغة في أشهر مدارس سورية الكبرى، ويكفي الشرق ما يعتوره من أسباب الشقاق، حتى لم تبق جامعة غير هذه اللغة، فبالله إلا أبقيتم عليها"

أرأيت ماذا كتب؟ أرأيت كيف ندد بالحكومات دفاعًا عن اللغة وانتصارا لها؟

هل يمكن أن يكون مثل هذا الرجل إلا حارسًا عظيمًا من حراس التراث؟

ولكنها كانت مظاهر المؤامرة التي تجمل بها، حتى ينفذ مخططه لضرب تاريخ الأمة ومسخ ماضيها المشرف، حتى تكون بلا ماضي ولا تاريخ ولا هوية.

لقد كانت مقالات الواعين الغيورين من الكتاب الإسلاميين، تنهال على المنار توضح وتبين للأمة جرائم هذا الرجل وجنايته على التاريخ، وينشرها الشيخ رشيد ويتعامل معها كأنها حكم فقهي له آراء مختلفة، وكان ذهنه وعقليته في تبلد كبير أمام هذه الجرائم البشعة.. فكان شيئًا مثيرًا

للغرابة والدهشة، وهو الذي عرف عنه القوة في الحق والجرأة على أعداء الاسلام.. لكنه في نظرته لجرجي زيدان كان محيرًا.

ما للقوم يخاصمون فهومي، ويقفون منها موقف المعارض الرافض المحتج، هل لأنني لا أحسن التعبير؟ أم لأنني لم أستو بعد في نظم الكلمات؟!

لم أسارع أبدًا لأتهم أحدًا بالجهل أو قلة الفهم، وإنما إذا لمست الاعتراض، لا أنظر إلا لنفسي، أتفقد فيها مواطن الخلل، وأتلمس مواطئ الضعف، وأتبصر مكامن التقصير ومنابت العلة، ولكني سرعان ما أجد تعبيري سليمًا وقصدي موفقًا، إذن فلننظر إلى الساحة الأخرى من فهوم الناس ومقاصدهم الخاطئة، التي استلهموها من كلماتي وطرحي.

حينما كتبت أنتقد شهادة الشيخ رشيد رضا في نعيه لجرجي زيدان، ظن بعض القراء أنني أهين رشيد وأطعن فيه وأبخسه حقه، وأهيل التراب على مقامه وكيانه، وما كان ذلك أبدًا قصدي، فرشيد هو إمام المسلمين، ومن أعاظم رجال الإسلام، وأعده في نظري رائدًا ومجددًا أحبه من عميق قلبي، وكان له تأثير كبير في نفسي حينما قرأت قصة حياته، وطريقه العلمي والروحي، لكنني أحب الحق دومًا فوق كل ما أحب، وأؤمن بنظرية النقد الذاتي، التي تعلمناها من روح البحث والتقييم النزيه، فليس معنى أنني أحبك أن أسلم بكل ما تطرح، وأقدس كل ما تنطق به، بل يصاحب حبي لك، ميزان الحق الذي أقيم به الأمور، وحرية العقل التي تسمح لي أن أبدي رأيي وأنتقد ما لا يروقني، كل هذا يحدث ويكون كائنا قائمًا مع حبي لك وتقديري لقيمتك.

هكذا كتبت وهكذا أردت..

الأمر بسيط جدًا جدًا، لكن بعض الناس يفتقدون ثقافة الحرية في الفهم الثقافي، وقد تعودوا في فهمهم للحب، أنه لا يعني إلا التسليم والرضا بكل شيء يقوم به المحبوب، وأن أي اعتراض أو نقد، إنما يعني في الحقيقة الكره والعداء، وتلك إذن قسمة ضيزى.!!

يا جماعة إنه بشر.!

حينما يكون المناخ كله فاسدًا، يكثر الفساد ويتعدد المفسدون، بل يحدث ما هو أنكى من هذا وهو إبداع النفس وتفننها في صور هذا الفساد.

بعكس ما لو كان المناخ كله قيميًا رساليًا يقوم على الأخلاق والقيم والفضيلة، حيث يصبغ الجميع بجمال الأخلاق والتحلي بالفضيلة.

وهذا هو الفارق بين المجتمع الراقي الفاضل، وبين المجتمع المنحط الذي يشب على الرذيلة، وتنبت فيه بذور العفن.

الناس اليوم تجد فيهم موجة عجيبة وهم يكذبون أي صلاح أو خير أو هداية، يدعيها أحد من الناس، ذلك لأنهم نشأوا في مجتمع قام على الفساد، وقل أو ندر من تجده مهتديًا هاديًا، ومن ثم لو وُجد هذا المهتدي بينهم لا يؤمنون به، ولا يصدقون صلاحه وهدايته، ويتهمونه بالضلال المتواري، وأن في جوفه شيطان خبيث يتخفى وراء ثياب الهداية.

بل حينما تعيب على أحد من الناس خصلة سيئة، ترى جمهورًا عريضًا يدافع عنه بقولهم: ومن منا بلا ذنوب، ومن منا بلا جرم؟ وهكذا صار هذا المفهوم هو القاعدة بين عامة البشر، لا لأنه طبيعة البشر، ولكن لأنه كما قلنا وذكرنا أصبح السمة الغالبة للمجتمع، الذي يشيع منه الفساد والمفسدين.. لكنه لو كان مجتمعًا طاهرًا يحث على الفضيلة والخلق، لكان له شأن آخر، خلاف ما نرتئيه اليوم من عموم الفساد.

ولعل هذا الفهم هو الذي انبعثت منه همة عدد من المؤلفين والكتاب العلمانيين واليساريين الذين ينتقدون الحضارة الاسلامية وقيامها على القيم والأخلاق، وأخذوا يكيدون لمجتمعها ورموزها حينما دسوا عليهم سيء الأقوال والأفعال ورديء المواقف والأحداث، بحجة أنهم بشر يصيبون ويخطئون وليسوا ملائكة، وقد رأيت بعض الكتاب العلمانيين يومًا، وقد ألف كتابًا عن أحد

الأئمة، ولفق عليه بعض التهم والمفتريات التي لا أصل لها، ولما سألوه في ذلك قال لهم: سبحان الله، إيه يا جماعه الرجل كان بشر ومكنش ملاك.!

وهكذا كانت كل جناية هذا الإمام أنه بشر، ولأنه بهذه البشرية كان حفيًا بأن يُفترى عليه الزور والبهتان.!

تلك إذن من قسمة ضيزى.

وهو نفس المنطق الذي تنتقد به ما جاء في كثير من مؤلفات طه حسين وجرجي زيدان من طعن في الصحابة والسلف الأول، فينبري لك من السطحيين من يقول لك: سبحان الله يا عم إنهم بشر مش ملائكة.! وغفل هؤلاء جميعًا أن المجتمع الذي تعيش فيه الفضيلة، لا يُنتج إلا الفضيلة، ويصبغ كل من فيه بلون النقاء والهداية.

قرأت مؤخرًا ما جاء في حديث جابر رضي الله عنه قال: قدمنا من سفر، فلما كنا قرب المدينة هاجت ريح شديدة ، تكاد أن تدفن الراكب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بعثت هذه الريح لموت منافق ".فلما قدمنا المدينة فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات."[1]

وجاء هذا الحديث بلفظ ثان عن جابر قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فهبّت ريح خبيثة منتنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين"[2]

وفي رواية: "إن ناساً من المنافقين اغتابوا أناساً من المسلمين، فبُعثت هذه الريح لذلك"

لقد كانت الذنوب والمعاصي تفوح لها روائح يعرفها الأطهار، ولما شاعت المعاصي في المجتمع اليوم، زكمت الأنوف فما عادت تميز هذه الروائح النتنة، كما ميزها السابقون الأطهار.

[1] - رواه مسلم
[2] - رواه أحمد بإسناد حسن

ولا نقصد بهذا الكلام أن نجرد المجتمع الطاهر من بعض الهِنات التي تحدث فيه، ولا ننكر هذا أبدًا، ولكننا نقر بأنها نادرة وضئيلة ومحصورة، بعكس مجتمع رتع في الرذيلة فلا يمر به يوم إلا ويصدر آلاف المعاصي والجرائم وصور الحرام وألوانه المتعددة.

يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[3] وهذا النور الذي أشارت إليه الآية المباركة، هو معنى اللطف الإلهي الذي يشمل الله به الأولياء والمقربين والصديقين من الرجال، وهو الحفظ والتأييد الذي يحمي المرء الطائع المنيب من كثير من الزلل، حتى ليهيأ لك أنه معصوم كالأنبياء والملائكة، لأن الله منحه جزاء طاعته ونقاءه نورًا يمشي به على الأرض، وما أدراك ما نور الله حينما يشمل الإنسان.؟!

خدعة التخلف الحضاري

مما يضاف لحسنات الحقبة الناصرية، تصديقها على طلب الأزهر في إنشاء كليات خاصة بالبنات في اللغة العربية والدراسات الاسلامية والاجتماعية والمعاملات والإدارة عام 1962م، بطلب من الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله.

ولكن لما كانت هذه الكليات تقتصر فقط على الفتيات دون الفتيان، فقد كانت مادة دسمة لحديث التيارات العلمانية التغريبية، وعلى رأسها الدكتور طه حسين، الذي لم يفوت الفرصة للنقاش والاعتراض على هذه الخصوصية الأنثوية في القرن العشرين، وفي زمن الاختلاط، بحجة أنها صورة تجسد معنى التأخر الحضاري الذي تشهده مصر.

ورد الأزهر على هذا الاعتراض وعلى رأسهم الشيخ عبد اللطيف السبكي عضو هيئة كبار العلماء بقوله: إن الجامعة بهذا الانفراد تلبي حاجة الأسر؛ التي لا تحب ولا ترغب أن تزج ببناتها وسط

[3] - سورة الحديد: 28

الشباب، ولأن الدكتور طه لا يمكن أن ينكر تلك المشكلات والمآسي التي نجمت عن اختلاط الجنسين، والتي ضربت طبيعة المجتمع المصري المسلم المحافظ في قيمه وتقاليده وعقيدته والتزامه الأخلاقي.

كان رد الشيخ السبكي تقليديًا يدعو للجدال والنقاش وإمكانية الرفض؛ بحجة تطوير المجتمع وخروجه من دهاليز الماضي، حتى جاء الرد الحاسم والقاصم والمعجز، من التربوية الكبيرة أستاذة أسماء فهمي (1903 – 1956) وهي أول مديرة مصرية لمعهد التربية العالي للمعلمات عام 1948، والأستاذة التربوية الرائدة في علم النفس و التربية، التي درست في مصر وانجلترا، وسافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1947 لإتمام أبحاثها و دراساتها، وساهمت بدور فعال في إنشاء كلية البنات بجامعة عين شمس، وتركت العديد من المؤلفات المهمة في مجالات علم النفس و التربية.

ردت الأستاذة على سيادة العميد بجوابها المفحم، لا في عظم علمها ومنطقها، وإنما باستشهادها الواقعي، بما وجدته في أميركا منبع التغريب ومعلم التمدن الحضاري، الذي يتغنى به التغريبيون.

لقد وجدت أن هناك في أميركا 154 كلية خاصة بالبنات، وأننا لن نكون رجعيين في مصر، لو أنشأنا جامعات وكليات ومعاهد خاصة بهن، كما يتوهم الدكتور طه، لأنه لا ينكر أن أمريكا ذات سبق حضاري، فالحضارة الحقيقية، هي التي تلبي حاجة الإنسان، وقد أدركت أمريكا ما في الاختلاط من شرور عادت بمآسيها على المجتمع، فيسرت لرافضي الاختلاط منافذهم التعليمية التي تلبي رغباتهن.

وأنا هنا لن أتكلم عن شرور الاختلاط الجامعي، وما جره عبره من ويلات ومصائب، ولكنني أتحدث وألفت إلى الفزاعة الغربية، التي يتقول ويتغنى بها كل من أراد أن ينعت طبائعنا وتقاليدنا وديننا بالتخلف الحضاري، و أن الغرب مثال التقدم والازدهار لا يعرف مثل هذه الأمور، بينما

نحن في الحقيقة لو بحثنا كما بحثت الأستاذة أسماء فهمي، لرأينا أن الغرب بريء من هذه الادعاءات، وأن ما يتقولونه عليه افتراءات غير موجودة.

ولعل هذا يذكرني بقصة الأحزاب الدينية، واعتراض الكثيرين على نشأتها، وأنها سبيل لعرقلة مسيرة الوطن وارتقائه ونموه وتلاحمه، وأنها طريق لقيام العنصرية التي تنهش بناء المجتمع، ودعوة هؤلاء إلى التشبه بالغرب العلماني الذي يستظل فيه الجميع بنداء الوطن، على حساب أي دين أو عرق أو جنس، وحينما بحث الباحثون، في معالم الواقع الغربي، فإذا بهم يجدون فيه أحزابًا كثيرة تأسست على أساس ديني، ولم يمنع أبدًا قيامها، أن تحافظ على وحدة المجتمع والمواطنة وقبول الآخر والتعاون معه، لترسيخ سبل وعوامل النهوض والتقديم.

لا تسلم أبدًا بشبهة أي علماني، وهو يستشهد لك بالغرب في كثير من الدعوى والآراء، لأنك لو رجعت إلى المجتمع الغربي، لوجدت أن هذه الدعاوى زائفة، وأنها قد قامت في الغرب وأقرتها حكوماته، ورأت أنها لا تحيل بينهم وبين التقدم والركب الحضاري في شيء.

العبرة بالخواتيم

من مآسي دنيا الثقافة، ذلك الفقر المعرفي الذي يقودك أن تعيب أو تتبنى رأيًا لعالم أو مفكر، فتنادي به أو تعترض عليه غاضبًا مُعيبًا، وأنت لا تعلم أن الرجل قد عدل عنه وغيره، وانحل من رؤيته وتبنى رأيا جديدًا يخالف ما سلف منه.

ربما تقرأ كتابًا يعلن اجتهادًا معين، ترفضه ولا تتوافق معه، فيدعوك ما قرأت، أن تشن حملة صاخبة غاضبة على صاحبه، فتندد به في المجالس، وتسخط عليه في المحافل، وتذكر متهكما مستهزئًا مالا يروقك من رأيه وقوله، حتى تفاجأ وأنت في أتون غضبك، بمن يربت على كتفك ويقول لك: حنانيك فالرجل قد رجع عن رأيه، وغير وجهة نظره في كتاب كذا أو مقال كذا أو حادثة كذا.!

لا شك أنك ساعتها سوف تشعر بحرج كبير، وضيق عظيم، مرة لجهلك وقلة بحثك وإحاطتك بالموضوع، ومرة أخرى لإحساسك المُر بأنك ظلمت من رويت عنه وتجنيت عليه.

ومن ثم نقول دائمًا: إن العبرة بالخواتيم، ولا يجوز لأحد ولا يحق له أن ينادي أو يحاسبني بآراء قديمة، رجعت عنها وتبت منها، وانصرفت عن النداء بها.

تمامًا كهذا الذي يعير مفكرًا كبيرًا بماركسيته السابقة، بعدما تحول للإسلام ومناصرة قضاياه.

إن الآراء القديمة التي تبت عنها، تشبه امرأة تزوجتها ثم طلقتها، فهل من المعقول والمقبول أن تحسب عليك أو تنسب إليك بعد الطلاق والفراق؟! إن ذلك أمر محال قبوله أو تعقله، لأنها تصير أجنبية وغريبة عنك، حتى لو كنت قد أنجبت منها أولادًا، وإن أي محاولة تخاطبك بهذا الماضي، أو إنزال الذكريات محل الواقع واللحظة المعاشة أمر لا قيمة له.

ذكرت مرة أم شوقي كتب شعرًا في كمال أتاتورك، حينما كان مخدوعًا به، وكانت الأمة كلها تتوسم فيه الخير، فمدحه شوقي بشعره وكان مما قال:

الله أكبرُ كم في الفتح من عَجَبِ

يا خالدَ التُركِ جدّد خالدَ العَرَبِ

صلحٌ عزيزٌ على حربٍ مظفرةٍ

فالسيف في غمدهِ والحق في النصب

حذوتَ حرب الصلاحيين في زمنٍ

فيه القتالُ بلا شرعٍ ولا أدبِ

لم يأت سيفكَ فحشاءً ولا هتكت

قناك من حرمة الرهبانِ والصُلُبِ

ولكن أمير الشعراء بعد ما تبينت له حقيقة أتاتورك، تبرأ مما قال، ولم يكن هذا التبرؤ في حاجة للإعلان، لأن المصيبة نالت من قلب كل مسلم، لكن شوقي أبى إلا أن يهجوه بشعر، كما مدحه في السالف بشعر فقال:

مالي أطوقهُ الملامَ، وطالما

قلدتهُ المأثور من أمداحي

هو ركنُ مملكةٍ وحائطُ دولةٍ

وقريعُ شهباءٍ وكبشُ نطاحِ

أأقولُ من أحيا الجماعةَ ملحدٌ؟

وأقول من ردَّ الحقوقَ إباحي؟

الحقُّ أولى من وليّكَ حُرمةً

وأحقُّ منكَ بنصرةٍ وكفاحِ

فامدح على الحق الرجالَ، ولُمْهُمُ

أو خلِّ عنكَ مواقفَ النُّصاحِ

ثمّ وصف كيف تمكن الغرور من أتاتورك، وشبههُ بمن تمكنت منه الخمر حتى قضت عليه، ووصف كيفَ بالغت الناس في تعظيمه مخدوعين، فقال:

إنَّ الغرورَ سقى الرئيسَ براحهِ

كيفَ احتيالُكَ في صريع الراحِ؟

تركتهُ كالشّبحِ المؤلّهِ أمّةٌ

لم تسلُ بعدُ عبادةَ الأشباحِ!

وفي نهاية القصيدة، ذكر كيف أنه صنيعة الاستعمار، ورجلهم الذي حقق أغراضهم وأمانيهم فقال:

هم أطلقوا يدهُ كقيصرَ فيهمُ

حتّى تناولَ كلّ غير مباح!

غرتهُ طاعاتُ الجُموعِ ودولةٌ

وجدَ السوادُ لها هوى المرتاحِ

أيكون معقولا بعد إظهار هذا الموقف الساخط الغاضب من أتاتورك، أن يأتي أحدهم، فيلعن شوقي، لأنه مدح أتاتورك بأبياته السابقة؟ لاشك أن هذا القصور المعرفي محنة كبيرة، تشوش على الحقائق والأفهام.

الأستاذ الكبير أنور الجندي، كان شأنه شأن كل المصريين، الذي توسموا في عبد الناصر خيرًا ورفعةً ونهضةً، ويحسن به الظن، ويرى فيه أمل هذا الوطن وبداية تحضره ونهوضه، ودفعه هذا الإعجاب أن كتب عنه أكثر من كتاب مثل: هذا هو جمال من بني مر إلى الجمهورية العربية المتحدة وطبعته دار المعارف عام 1960م، وكتاب جمال عبد الناصر وكفاح الشعب وطبع عام 1956م ، وكان قد ألف كتابًا ثالثًا بعنوان الشروق الناصري، لكنه طواه ولم يعد طبعه بعدما تكشفت حقيقة الطغيان الناصري وشخصية الزعيم الدكتاتور المستبد، الذي قاد الوطن للهزيمة والعار.

فهل يمكن لي ولغيري، أن يروي ذكر هذه الكتب الثلاثة، ويحيي طبعها ويردد مضمونها، وقد ندم عليها صاحبها؟ ألا إن هذا ظلم كبير يوقعنا فيه، قلة درايتنا وضعيف معارفنا بالبحث والباحثين.

ومثل هذا الاختبار وقع فيه علم كبير وهو الأستاذ محب الدين الخطيب، فعاب رأيًا ونسي توبة، إذ يذكر الدكتور محمد رجب البيومي أنه ذهب إلى لقاء الشيخ أبو الوفى المراغي في مكتبة الأزهر العامة، وكان قد قرأ له مقالا بجريدة الأهرام يرثي فيه الراحل الأستاذ فريد وجدي، ففاجأه المراغي بقوله: إنه كتب المقال لمجلة الأزهر، ولكن الأستاذ محب الدين الخطيب تشدد في رفضه، وأبى أن ينشره، فلم يجد بدًا من إرساله إلى الأهرام، فسارعت بنشره على غير ما كان يظن.

ودهش البيومي من الرواية، وسارع إلى الأستاذ محب الدين الخطيب حتى يستجلي معالم الرفض، وقال له: علمت أنه رفضت نشر مقال في رثاء الأستاذ وجدي، وهو رئيس تحرير مجلة الأزهر لمدة عشرين عامًا، وجهاده الشاق في الحقل الديني، يجعله في مقدمة زعماء الإسلام في العصر الحاضر، فلماذا؟

تغير وجه الخطيب فجأة وقال: أنت لا تعرف فريد وجدي، إنه ناصر الكماليين في تركيا، كما أنه في بعض كتاباته الأولى قال: إن الإسراء كان بالروح ولم يكن بالجسم، فكيف أترك صفحات المجلة للحديث عن مثله، لقد رثيته بالعدد الماضي في عدة سطور وهذا يكفي!

وأمام هذا المنطق انفعل البيومي على الأستاذ الخطيب وعلا صوته قائلا: إن الأستاذ وجدي قد ناصر الكماليين في مبدأ الأمر، لأنه كان يجهل حقيقة ما يبيتون، وكذلك كان أحمد شوقي، فلا يلام كلاهما!، أما الإسراء بالروح فقول ذهب إليه بعض السلف، فإذا قال به الأستاذ وجدي فهو تابع لا متبوع، على أنك قلت: إن هذا رأيه في كتاباته الأولى، ومعنى ذلك أنه لم يعد رأيه أخيراً،

ثم سكت الأستاذ الخطيب ولم يرد، فاستدرك البيومي كلامه بقوله: لقد ألفت يا أستاذ كتابًا عن الشاعر الهندي طاغور، وله جهاده المشرف؟ ثم إنك تجلس اليوم مكانه بالأمس! واستأذن منصرفًا دون أن يسمع جوابًا.

المنافقون وحدهم من يجوز لك أن تلومهم، وتعلن تناقضهم، وتندد بنفاقهم، وهم من يغيرون جلدهم، ويتلونون مع الأيام بألوانها المستجدة، ويتكيفون مع أعصارها، وموجاتها وسياستها، مهما تباينت أو تخالفت، فالمهم أن يكونوا هم في قلب الحدث يستفيدون ويظهرون.

وقد أعفي كذلك من هذا الحرج من كانوا يظهرون آراءهم خوفًا وهروبًا من الأذى، ثم أظهروا ما خالفها حين زال الخطر، وأتيحت لهم الحرية اللازمة ليعبروا عن حقيقة مكنونهم.

رسالة إلى الإسلاميين

تنبع هذه الرسالة من رؤية مشاهد متمعن للعراك الدائر بين العلمانيين والإسلاميين، ولواقعية الخطاب الإسلامي الذي يمثله التيار الديني خاصة في مصر.

وأحب التلميح هنا أنني لا أعني بالتيار الديني جماعة بعينها أو حزبا بذاته، ولا أمثل بسطوري طائفة أو طريقة أو تنظيمًا، فأنا أزهري التعليم والنشأة، وأقصد بالتيار الديني، كل ما يمثل الإسلام سواء كانت منظمة أو مؤسسة كالأزهر الشريف والأوقاف، أو طوائف لها تأثيرها وجمهورها العريض بين الناس كالصوفية وغيرها.

والمتابع لهذا العراك، يجد نجاحًا كبيرًا للعلمانيين قد حققوه في خطابهم مع الناس، لا لأن حظهم الإعلامي أكبر من الإسلاميين في الصحف والمواقع والفضائيات، ولكن لأن خطابهم للأمة المصرية أوعى وأعمق وأبصر وأشد تأثيرًا في نفوس الناس، لما يتضمن من لفتات دقيقة فاعلة، ولما يرتكز على نقاط مؤثرة في الشعب المصري.

تلحظ في الآونة الأخيرة تركيز العلمانيين على خطابهم للشعب بلفظ المصريين، وهو اللفظ الذي يشعر المواطنين أن من يتحدث منهم وفيهم ويعبر عنهم حتى ولو كان منطقه خطأ، وهي لفتة ماكرة يعرفون أنها تأتي بثمارها المرجوة في تشكيل وعي المواطنين والتأثير عليهم، وتمنحهم أي العلمانيين، فرصة للتعبئة العامة تجاه ما يعارضون من أفكار، حتى ولو كانت أفكارًا إسلامية ومن صميم القرآن والسنة، وذلك لاعتزاز المصريين في هذه الحقبة بعنصرهم وحضارتهم ووطنهم.

ومن ثم أوجه اليوم رسالتي إلى الصف الإسلامي، راجيًا من الدعاة أن يركزوا على هذه النقطة، ويضمنوها خطاباتهم، ويؤكدون للناس: أن المصريين هم أهل الإسلام وأصل التدين ومنبع الدعوة ومنارة العلم والدين، وأن أي دعوة تحارب الإسلام إنما تحارب المصريين، وأن من يريد القضاء على دينهم، فهو في حقيقته يريد القضاء على مصر، لأن مصر إسلامية وعقيدتها الإسلام وكتابها القرآن، الذي ذكرها في عشرات المواضع، وشرفها أكثر مما شرف غيرها من مواطن الأرض.

لا ندعو اليوم إلى عنصرية يرفضها الإسلام، ولا إلى تحيز أنكرته مبادئه التي تجعل كل وطن إسلامي هو أرض الإسلام، ولكننا اليوم نريد الحديث عن تطوير الخطاب الدعوي، الذي يتسم بالحكمة والذكاء والدهاء، لنواجه خبث التحشيد المعادي للدين باسم مصر والمصريين.

نريد أن نعلم الناس أن لا يوجد دين ولا نبي كرم مصر وأعلى قدرها أكثر من الإسلام، وأن انتماء مصر للإسلام ليس مجرد دين وعبادة يتدين بها الناس، وإنما نريد أن نوجد في نفس كل مصري،

شعورًا قويًا دافقًا بأنه مسؤول عن هذا الإسلام، وأنه يعبر عنه، وأن أي مساس بمصر، إنما يعني المساس بالإسلام، وأي مساس بالإسلام، إنما يعني المساس بالمصري.

لعل كل الدعاة اليوم يذكرون خطبة الداعية السعودي الشيخ محمد العريفي عن فضل مصر والمصريين، وكيف كانت خطبة قوية وعظيمة تشيد بمصر وأهلها وترفع مكانتهم إلى السماء، حتى أن الإذاعات المصرية أذاعتها، وتحدثت عنها برامج التوك شو، التي يديرها علمانيون، لأن أغلب الناس ينتشون حينما يشعرون بالفخر، ويحبون من يشيد بهم ويرفع مقامهم، ويكون أثيرًا في نفوسهم.

فإذا ما أردت أن تكسب أحدًا فامدحه، وأعلي مقامه وذكره على الناس، ولعل هذا هو حال المصريين اليوم، يحبون ويعشقون من يعظم مصريتهم ويشيد بحضارتهم وكريم عنصرهم، وعظمة وتأثير بلادهم، ومن فعل ذلك معهم، وجد من عقولهم إصغاء، ومن وجدانهم تلبية، ومن قلوبهم محبة وانقيادًا.

لقد فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل، حينما قاله له عمه العباس في فتح مكة: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فامنحه شيئًا فقال: من دخل الكعبة فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن.

فعل ذلك ليكسب وده، وينعش نفسه، ويمهد فيها قبولها للإسلام.

لماذا لا يفعل الدعاة نفس الفعل ونفس الأسلوب والطريقة في مخاطبة المصريين، إن كان الاعتزاز بالمصرية هو أقصر وأقرب الطرق إلى قلوبهم شعبها.

لا أقول أن نتحول إلى استغلاليين أو مخادعين، أو إلى ماكرين أو مستجدين للناس على حساب الله ودينه، وإنما الدعوة اليوم تتطلب من الداعية أن يكون فقيهًا بصيرًا حكيمًا مدركًا لما يدور حوله من ألوان الخطاب وأساليب التأثير، التي يضمن بها محبة الناس وإقبالهم عليه.

إن كل مصري مازال يتغنى بكلام الشيخ الشعراوي في بعض أحاديثه ومؤتمراته، وكان رحمه الله ذكيًا ماهرًا، حينما قال يومًا: "كيف يقولون عن مصر بأنها أمة كافرة، مصر (وبصوت عالي حماسي) التي صدرت العلم إلى كل بلدان الدنيا، صدرته حتى إلى البلد الذي نزل فيه القرآن"

وهذه الكلمة جعلت كل مصري ينتشي وينتفخ، ويشعر بفخار وعز لا نظير له، ولكن مما لا شك فيه أن من تبعات هذا الانتشاء وهذا الفخر، محبة طاغية للشيخ الشعراوي في القلوب، لأنه لعب على عاطفة الوطن لصالح الإسلام.

وفي القرآن الكريم حينما أراد الطاغية فرعون أن يعبئ الناس ضد موسى عليه السلام، لم يجد أفضل من اللعب بالعاطفة الوطنية حينما قال: (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) كان كل شيء مقبولا مستساغًا إلا حب الوطن والإخراج منه، وهي محاولة خبيثة من فرعون، أراد أن يرتكن عليها، حتى لا يفلت منه زمام الأمر.

ولو نظر كل داعية اليوم إلى مقالات العلمانيين، لوجدهم يريدون أن يقولوا للناس: إن مصر علمانية وهويتها علمانية أو فرعونية أو أي ملة غير ملة الإسلام، فالمهم فقط أن يلغوا ما يخص المصريين من أي انتماء ديني إسلامي.!

أعجبني كثيرًا بعض مثقفينا المصريين الذين استغلوا الحقبة الناصرية ودعوتها للقومية العربية، وحاولوا أن يسربوا أفكارهم الإسلامية عبر هذا التوجه القومي، فسلسلة أعلام العرب كانت تتحدث عن كل عباقرة العرب الذين هم في الأصل إسلاميين وينتمون للحضارة الإسلامية، وما أعلى نبوغهم إلا حضارة إسلامية قبل أن تكون حضارة عربية.

الكاتبة العلمانية فاطمة ناعوت، كتبت مؤخرًا مقالا ضافيًا عن حفل نقل المومياوات، وحاولت عبر هذا المقال الذي ذكرت فيه مصر والمصريين، أكثر من 25 مرة، وذكرت كلمة هويتنا المصرية الفرعونية حوال ثلاث مرات، كانت ماهرة ومؤثرة، لا لأن سطورها وفكرها على صواب أو

جمال، وإنما لأنها تستخدم الخطاب العاطفي والعنصري والوطني، في تعبئة الرأي العام ليؤمن بأفكارها، ويتبنى دعاويها، وكل من يعلق على مقالها، يتبدى لك من خلال التعليق، كيف تم خِداعه باسم مصر والوطن والهوية والحضارة والأجداد والسلف الصالح العظيم، وهو اللفظ الذي لم يستخدمه أحد إلا مع السلف الصالح من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن المرأة أقدمت في جرأة متناهية، وهي تصور للمصريين أن الإسلام ودعاته أعداء للجمال والحضارة وأصولنا العظيمة، التي بهرت العالم بتاريخها الذي حير الدنيا.

أرجو من الدعاة في هذه الفترة تحديدًا، أن يحيوا الإسلام في قلوب المصريين، عبر الحديث عن مكانة مصر والمصريين في تاريخه وكتابه وأزمانه وحضارته.

سابقوا العلمانيين في خطف هذه اللمحة الذكية، التي تخدمون بها عقيدتكم ودينكم، لتحفظوا هوية هذا الشعب الدينية الإسلامية، التي لم تكن يومًا رومانية ولا فرعونية وإنما إسلامية.

عدوة الوطن

على ذات الطريق في مسألة التحايل باسم الوطن والوطنية، كنت أطالع مقالات العلمانيين في كتاباتهم عن الراحلة نوال السعداوي.. كنت أحاول تحديدًا أن أقرأ شيئًا في دفاعهم عن هلوساتها وهذيانها وأفكارها الشاذة المريبة، لكنني لم أجد شيئًا يتناول هذه الأفكار ويؤيدها بعمق ووعي وبصيرة، وإنما كان مجرد طنطنات إعلامية فارغة، يقصدون منها إلى غايات أخرى.

وفي قراءتي لهؤلاء لمحت شيئًا مهمًا جدًا وخطيرًا جدًا من بين السطور، فجميعهم يتحدثون عن شيء غريب وهو وطنية نوال السعداوي، وأن أفكارها وقلمها كان يدافع عن الوطن وينهض بالمجتمع، لقد أوشكوا في جرأة متجنية أن يشبهوا المرأة بالزعماء الكبار كسعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد، وهذه اللمحة تحديدًا، أعرف أن المقصود منها هو تعبئة الرأي العام ليناصر الراحلة في أفكارها، ويعبئ مشاعر المؤسسات الوطنية في الدولة، ويشعرها أنها كان لسان

الوطن، ودرع متين مستنير يحمي مجتمعه، والحق أن هذه اللعبة فاسدة وساقطة ومكشوفة متعرية للجميع، فما فعلته نوال السعداوي بأفكارها الفاسدة المنحلة، كانت ضد الوطن، وضد المجتمع، وضد مصر وشعبها، فما معنى أن أشيع الشذوذ والضلال والهذيان الذي يعارض ويفسد عقيدة الوطن، ويحارب تعاليم الإسلام الذي تدين به مصر وأهلها وجيشها ومؤسساتها وأزهرها؟

ما معنى أن أخرج على الناس كل يوم وآتيهم بما يشككهم في ملتهم، ويجرح مشاعرهم في دينهم الذي يعتزون به، وقرآنهم الذي يتقربون به إلى ربهم، هل هذا في صالح الوطن وفي صالح مصر؟ هي في صالحها أن أفتن الناس في ما استقر في قيمهم؟!

أبدًا والله أبدًا.. كلا وألف كلا، فأفكار هذه الطغمة المنحلة الشاردة لا ترضاها مصر، ولا تقبلها الدولة التي تريد الاستقرار لهذا الوطن وتعمل لصالحه، ولا تتفق مع مؤسسات البلاد التي تحمي المجتمع بعرفه وتقاليده ودينه ومعتقداته، وتنفي عنه أي انحراف يمكن أن يجر إلى فتن وتطرف وانحراف خارج سياج الدين الذي يحمي صمام البلاد.

ذكرني هذا الهراء بما ردده كاتب علماني بعد رحيل السيناريست وحيد حامد ليقول: وحيد حامد كان جزءًا من حضارة مصر، لم أتمالك نفسي أما هذا السخف لأنفجر بالضحك على هذا التخريف، وكيف يزن هؤلاء مصر؟ وكيف يقيمون معاني الحضارة؟

ألا إنني أقول وبكل صراحة ووضوح: إن العلماني هو أول عدو لهذا الوطن، وأول سوس ينخر في ثبات المجتمع وأمنه وسلامته، وهو يحاول جاهدًا سلخ الناس من ثوابتهم وإيمانهم.

وحتى متى يتغنون بهذا الخرف والزيف حول مسألة تحرير المرأة والانتصار للتنوير، وكأننا نعيش في ظلام الجاهلية، وكأنهم عميان عما وصلت إليه المرأة من مكانة عظيمة وكبيرة في الحكومات المصرية المتعاقبة، لقد صارت إن كانوا لا يعرفون، إلى منصب الوزارة والإدارة والقيادة في كثير من المؤسسات والمراكز العليا، ونيابة البرلمان، وتوشك قريبًا أن تنافس على منصب رئيس

الجمهورية، فأي هرف يرددون وأي عبث يقيمون عليه معاركهم الواهية، والدولة في مصر قد أعطتها كل الحقوق ومنحتها كل المكتسبات؟!!

وأي حصار للمرأة يزعمون، وقد حلت في كل المحافل، وبرزت في كل المواطن؟

افتحوا التلفاز، وتصفحوا الجرائد المصرية، وأنتم تعرفون مكانة المرأة التي كفلتها لها الدولة واعتنت بها، لتصبح شريكة الرجل في كل شيء، دلوني على رجل يعمل في مؤسسة من المؤسسات أو مصلحة حكومية، ولا يجد المرأة إلا شريكة له، تعمل مثل عمله، وتقبض مثل راتبه، ولها كل الحقوق التي له.! حتى الأزهر الذي يتهمونه أنه معقل الذكورية، صارت فيه واعظات ومعلمات وجامعيات في معاهده وصروحه.

وأنا أتعجب بين الحين والحين، حول ما يزعمونه للراحلة من أفكار تحرك العقل وتصادم المألوف، مدعين أنها كانت جريئة متمردة، وكأن هذا شيئا جميلا جيدًا محمودًا مرغوبًا فيه، ونسوا أن ما كانت تتقول به، يفسد الطبائع ويشوه الغرائز، ويقلب موازين الحياة لتضطرب أحوال العباد والبلاد.

أرجوكم دافعوا عن السعداوي كما تحبون

ارثوها بما شئتم من الألفاظ والألقاب

أقيموا لها التماثيل في كل منتدياتكم

لكن لا تذكروا الوطن في شيء، ولا تقربوها من لفظ الوطنية، ولا تلبسوا على الناس أنها كانت حامية المجتمع، ولا توهمونا أنها عملت من أجل مصر ومصلحة مصر ضد أعدائها، فما كانت الراحلة إلا أعدى أعداء مصر، وهي تخلخل معتقداتها، وتفسد دينها، وتهين مشاعر الأمة كلها في ثوابتها وإيمانها.

ليس لي شأن بالراحلة ومصيرها عند ربها سبحانه، ولكن كل عراكي مع هؤلاء المزيفين المهرجين الذي ينزلونها منزلة لا تليق بها، ويعطونها أكبر من حجمها، ويخيلون للناس ما يصعب مع تاريخها وخرفها أن يتخيلوه ويؤمنون به.

الثقافة والسلطان

الثقافة لا تتمدد ولا تتسع ولا تنتشر، إلا إذا دعمتها السلطة، ولقيت تأييدًا من السياسيين وأصحاب النفوذ والقرار.

ولهذا كان أكثر الأدباء الكبار حينما يريدون الترويج لأسمائهم، فإنهم لا يعتمدون على أدب ولا علم ولا مواهب، بقدر ما يعتمدون في المقام الأول على حزب يمتلك أعضاء في البرلمان، ووزراء في الحكومة، وصحيفة توجه الرأي العام، ومعنى هذا، أنه سيطل من أي هذه الوجوه على الجماهير ليُعرف ويشتهر، هكذا فعل العقاد، وهكذا فعل طه حسين، وقد كان زكي مبارك يتحسر على نفسه وأدبه، أنه لم ينافق ولم يسع لتأييد السياسة والأحزاب، ومن ثم بار أدبه، ولم يكن هناك من يحتفي به بما يقارع مكانته الكبار ويوفيه حقه.

كذلك الأفكار والمذاهب إذا كان لها من تأييد السلطة نصيب، فإنها ستنتشر وتتوغل، ويدين بها القاصي والداني، انظر مثلا للمالكية في بلاد الأندلس والمغرب، فقد بدأت بتولية بعض المالكية، الذين حرصوا بعد ذلك إلى تولية تلاميذهم وأتباعهم، حتى تسير البلاد كلها على المذهب المالكي وقد كان، وكذلك العثمانيون مع المذهب الحنفي حتى صار صبغة كثير من المسلمين في بلاد الشرق.

والسلطة طريق يسير مختصر لانتصار المذاهب والأفكار وانتشار اللغة.

فإذا ما تم تأييد السلطة فقد سهل بعد ذلك السيطرة على الجماهير وإقناعهم بالأفكار والآراء، أهم شيء أن تأذن السلطة وتفسح المجال، بلا عوائق أو قيود.

لقد وقف السوفييت بجوار عبد الناصر، في تحديه للقوى الكبرى وبناء السد العالي، بنوا هذا السد بأموالهم ومهندسيهم، ولم يكن هذا التأييد لأنه حليف موسكو، ولابد من مناصرته والوقوف بجواره وتأييده فقط، ولكن كان هناك ثمن، وثمن فادح، وهو أن يتولى الشيوعيون السيطرة على مقاليد الأمور في مصر، سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا وإعلاميًا، إلخ.

وانصاع ناصر لمطالب الروس مضطرًا أو متحمسًا، فلا يهمه شيء في مصر إلا زعامته وإرضاء شهوات نفسه، فمكن الشيوعيين من أدوات الإعلام كلها، من صحافة وإذاعة ومسرح وثقافة، وكان صديقه هيكل محاطًا في الأهرام بأقطاب الشيوعية مثل محمد سيد أحمد، ولويس عوض وصلاح جاهين، كما رتب الشيوعيون وخططوا للاستيلاء على دار أخبار اليوم من مؤسسيها علي ومصطفى أمين، فلفقوا لمصطفى قضية تخابر مع أمريكا وأودع في السجن، وصار الطريق مفتوحًا للسيطرة عليها، وصار محمود أمين العالم رئيسًا لصحف الدار ، جريدة الاخبار اليومية، ومجلة أخبار اليوم الأسبوعية، ومجلة آخر ساعة، ثم كانت سيطرتهم على دار الهلال، وأصبح أحمد بهاء الدين رئيسًا لتحرير المصور كبرى مجلات الهلال.

وتوزع كثير منهم على مختلف الصحف، بحيث صارت لهم السيطرة الكاملة على الإعلام، وهذا دومًا من أساليب الشيوعية ومخططاتها للسيطرة على العقول من عهد لينين، وأما في الثقافة فقد عين ناصر د. ثروت عكاشة الذي عين بدوره محمود أمين العالم، مديرًا للهيئة العامة للكتاب وسعد كامل مديرًا للثقافة الجماهيرية، وحمدي غيث وسعد أردش رؤساء أو نواب لهيئة المسرح، وكان التوجه وقتها كله شيوعيا بإيعاز من روسيا وتصديق من ناصر، وهو الغزو الإعلامي الثقافي، الذي جعل الشيخ الشعراوي فيما بعد، يسجد شاكرًا لله أن هزمت مصر في 67، لأن النصر لو كان، فلن يكون لله وإنما لروسيا، أي أن الشيوعية ستتوغل أكثر وأكثر، حتى تتغير عقائد الناس.

وهكذا تعلب السلطة دورًا كبيرًا في تشكيل عقول الجماهير وانتصار الثقافات، ووأد الأفكار المغايرة، وتقزيم حجمها ووجودها، ولعل هذه هي الفكرة التي أشار إليها أمير المؤمنين عثمان ﷺ حينما قال: "إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"

حائر بين الرأي والقيم

أتدري ما الذي ينقص كثيرًا من الكتاب والمفكرين العلمانيين واليساريين اليوم؟ إنهم لا ينقصهم اعتدال الفكر والفهم، بقدر ما ينقصهم الصدق والإنصاف والخلق والأدب والاحترام.

إن هذه الطبقة التي نشاهدها اليوم من المنفلتين فكريًا، مشكلتهم الكبرى ليست في هذا الانفلات، وإنما مشكلة أكثرهم أنهم يخاصمون معاني الخلق والفضيلة، وهم لا يحبون إقامة الحوار مع خصومهم، أكثر من حبهم لتركيعهم تحت حد المقاصل، أو نصبهم على أعواد المشانق، لقد أعلنوا فشلهم الكبير في قبول الآخر، واتخذوا من القمع والتحريض منهجا في معاملة الخصوم، هكذا رأيناهم مؤخرا وشهد العالم كله عليهم.

من قديم وأنا أقول: لا بأس أن يتغير الرأي والفكر والفهم، ولكن الذي لا قبول فيه عندي، هو تغير القيم والأخلاق والتفريط في المبادئ.

إننا نعظم الأخلاق، لإيماننا أن الأخلاق منبع كل خير، والطريق لكل فضل، ومن يفقد الأخلاق، تسفل قيمته مهما امتلأت رأسه بالعلم والفكر.

تخبل اليوم لو أنك تحاور صنديدا من صناديد العلمانية، وهو لا يكذب ولا يظلم ولا يفتري ولا يسخط، ولديه رصيد وافر من الأدب والذوق والخلق والفضيلة، كيف يكون إذن حاله؟ وكيف تكون الوقائع معه، بل كيف سيكون احترامه للدليل والرهان إذا ما بدا جليا أمامه؟

هل يرفض ويجادل ويمكر؟

لن يفعل شيئًا من هذا لأنه منصف وصاحب أخلاق يعظم الفضيلة.

قرأت مؤخرًا شيئًا عجبًا، ولو أنه حدث اليوم لقامت قائمة السلفيين وغيرهم من كثير من المأفونين، الذين يحلوا لهم تكفير الناس وتفسيق المخالفين، وإسقاط كل حق يتمتعون به، لمجرد خلاف في الفكر والرأي.. هل تتصور أن أعلام السنة رووا الأحاديث التي هي عماد الدين ومناط التكليف عن شيعة؟

نعم لا تتعجب، لقد ثبتت روايتهم للحديث وأخذهم عن علماء الشيعة، لثبات علمهم وأخلاقهم.

لقد كانت الأخلاق هي الرباط والوثيقة التي دعت علماء السنة أن يرووا عنهم وهم مطمئنون للصدق والأمانة، التي لن تنجر يومًا إلى اعتماد كذب أو تورية حق من الحقوق.

يقول القائل:" فقد كان عدي بن ثابت بن قيس عالم الشيعة وقاضيهم، وإمام مسجدهم، وقد وثقه الدارقطني وأحمد بن حنبل والنسائي، وقال أبو حاتم الرازي عنه إنه صادق صدوق، وكذلك كان منصور بن أبي الأسود الليثي الكوفي الخياط من أئمة الحديث، وروى المحدثون أحاديثه لصدقه وعدالته وهو شيعي أمين، بل كان الإمام أبو الحسن علي بن عاصم الواسطي من طبقة شيوخ الإمام أحمد بن حنبل، وكان يحضر مجلسه أكثر من ثلاثين ألفًا، فلا يبقى في بغداد عالم ذو مكانة إلا شهد مجلسه، وقد جاء في كتاب الكفاية للخطيب البغدادي أن المعتصم الخليفة العباسي، كان يختلف إلى مجلس أبي الحسن علي بن عاصم هذا، فسمعه يروي حديثًا عن عمرو بن عبيد، فقال له أتروي عن عمرو ابن عبيد وهو قدري، قال: نعم أروي لأنه ثقة! وكان عبيد الله بن موسى العبسي من كبار علماء الشيعة، وروى عنه الإمام البخاري ما رواه، وكذلك روى عنه أبو حاتم الرازي، وأبو بكر بن شبه وكثير من الفضلاء! وقد وثق يحيى بن معين كثيرًا ممن شاهدهم من أعلام الشيعة، وقال عن كل من تحدث عنهم إنه صدوق، فإذا كان أهل السنة

يقبلون روايات الخوارج والقدرية لأمانة من قالوها وثقتهم بهم، فهم لروايات علماء الشيعة أسرع، وبهم أوثق"

إن كثيرًا من المتدينين اليوم، تشعر حينما تتعمق في الثقافة، الدينية أن هناك قصور في الفهم قد أصابهم، وأن موجة عتية من العداء وعدم التمييز أصابت العديدين منهم، فهذه الجحافل السلفية التي تهاجم الصوفية اليوم وترفض وجودها، لو أنهم رجعوا لكتب الأئمة الكبار الذين يرددون أقوالهم، لوجدوا أنهم قبلوا عدول هذا الطريق، واستشهدوا بأقوال أئمته وأوليائه، بل كان الحديث عنهم ذكرًا معطرًا بالرحمات والغفران، في الوقت الذي يكيل لهم هذا الشباب القاصر تهم الشرك والكفران، هكذا فعل ابن تيمية مع أئمة التصوف كالمرسي أبا العباس وحجة الإسلام الغزالي وغيرهما.

وعودًا على بدء وقبل الشطط في الرفض، والتطرف في الاستنتاج، فإنني أقرر حسب دراستي، أن التشيع عالم فسيح متسع، وفي فرقهِ ما يقارب أهل السنة والجماعة ويشابههم في الفقه والمعتقد كالزيدية والإباضية، وليس الحديث يخص المغالين والمفرطين، أو يدعو للأخذ عنهم.

المعتزلة ليسوا كفارًا

هل تعلم أن أكثر من (30) رجلا روى عنهم البخاري ومسلم كانوا من القدرية المعتزلة، ورغم بدعتهم لم ير الشيخان ضررًا في الأخذ عنهم إذا كانوا ثقة صادقين؟!

وهل تعلم أن الإمام أحمد قال: لو تركنا الرواية عن القدرية لتركنا أكثر أهل البصرة؟! وقد كانوا من الأفاضل والمحدثين المعتبرين.

ومما يجب علمه.. أن قدماء المعتزلة عرفوا بالفضل والعلم، وأنهم لم يريدوا بما ذهبوا إليه إلا الخير، وذلك ما أوصلهم إليه اجتهادهم، وأدّاهم إليه حرصهم على تنزيه الله وتوحيده، وحرصهم كذلك على حماية الدين ورد كيد الطاعنين فيه وشبههم، ولقد عرف لهم هذا أهل السنة، وإن

جرى ذمهم على ألسنتهم، فإنما ذلك للتحذير من المنهج المنحرف الذي سلكوه، لا قدحا في نياتهم ومقاصدهم.

ويعدونها من الفرق الضالة، لأنها خالفت ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، و لا يعني هذا أنهم كفار أو مخلدون في النار.

وقال عنهم القاسمي في مؤلفه (تاريخ الجهمية والمعتزلة) الذي أنصفهم فيه إنصافًا كبيرًا: إنهم من المجتهدين، وأن ميدانهم من فروع الفقه في الدين، وكيف لا يكونون من المجتهدين، وهم يستدلون في براهينهم بالكتاب والسنة؟! وقد ذهبوا في كل مباحثهم لغاية تنزيه الله تعالى وخدمة التوحيد، ولا شك أنهم أخطأوا بمنظار أهل السنة لأن أمور الاعتقاد لا اجتهاد فيها وإنما هي جلية ثابتة.

ومن أراد التزود من الحديث عن براءتهم، فليقرأ كتاب القاسمي وينظر كيف كانوا؟ ويعرف الفرق بين سلفهم وخلفهم، والمتقدمين والمعاصرين.!

غاية القول: أننا سقنا هذا التنبيه، ليكون مقدمة لحديثنا عن المأمون الخليفة العباسي الذي ظلمته تصوراتنا الخاطئة، ولأنه من أوقد فتنة خلق القرآن التي كانت بلاء على الناس، حتى ننصفه أو نبين عذره في الأمر واجتهاده فيه، لأن الكتب التي صورت هذه المحنة، وروت ما نزل بالإمام أحمد جعلت بعضا منا ينظر للمأمون والمعتصم والمعتزلة في هذا الوقت، نظرتنا لليهود والملاحدة أو الكفار من عبدة الأصنام وليس الأمر على هذا أبدًا.

لقد جاءت الكتب التي روت محنة أحمد بن حنبل في فتنة خلق القرآن، وهي تحاول تصوير الحاكم وقتها بالمارق المبتدع الملحد في الدين المجترئ على الله، كما صورته بأنه الطاغية الجبار الذي أرهب الناس بالسيف وحملهم على غير مذهب أهل السنة بالعسف والبغي.. وربما حدث ذلك ولكن برؤية أخرى وتصور مغاير!

لقد حمل المأمون الناس بالسيف على القول بخلق القرآن، واعتناق ما اجتهده من حوله من شيوخ المعتزلة، ولكن تعذيب الإمام أحمد لم يكن في عهده، وإنما في عهد المعتصم، الذي أخذ بوصية أخيه قبل موته، بأن يحمل الناس على القول بخلق القرآن، ولكون المعتصم رجل حرب، فقد أخذ الوصية بظاهرها، فاعتقل وعذب وشرد المخالفين، ولك أن تعرف أن الأمر لم يكن حمل الناس على الكفر والإلحاد في دين الله، وإنما كان غاية هؤلاء الخلفاء، هو تنزيه الله تعالى، وتنقية التوحيد دون أن تشوبه شائبة، نعم فما كانوا يفعلونه من هذه الحملة، إنما كان قصدهم فيها تنزيه الخالق سبحانه، ونصرة الدين حسب ما ساقهم إليه اجتهادهم!

يقول الدكتور أحمد شلبي: "والمنصف ربما استطاع أن يتلمس العذر للمأمون، لأنه لم ير المسألة تمسه، فلو كانت تمسه لعفا وصفح كما هو حاله وخلقه، ولكنه رأى المسألة أعمق بكثير، رأها مسألة إسلامية تتعلق بصميم العقيدة، ورأى أن من لم يعترف بها يصبح خارجًا عن الدين! فأعلن أن من واجبه وهو خليفة للمسلمين، ويقوم بشؤون دينهم ودنياهم، ألا يستعمل في أمور الدولة هؤلاء الخارجين، وأن من واجبه أن يحمي جماهير الناس من فكرتهم، التي يراها مارقة كافرة، وقد زاد سخط المأمون على المحدثين، لجمود موقفهم، ولعدم دفاعهم عن آرائهم بالمنطق أو بالمنقول، ومن ثم استشهدوا لغضبه وإيقاعه بهم، وقد وضح المشكلة كاملة وموقفه منها في كتابه الذي أرسله إلى نائبه في بغداد، والذي لو قرأهما المسلم، لتبين له كيف كان الرجل غيورًا على دين الله وأنه حملته ما كانت إلا في سبيل الدين.!"

علمانيون ينصفون الإسلام

منذ أكثر من ستة عقود، قام سلامة موسى لينادي بمساواة المرأة مع الرجل في الميراث، وظن الرجل أن النساء من دعاة النهضة والتنوير، سوف يقفن خلفه، ويصفقن له ويدعمنه بحماسهن، ويرددن دعاويه التي تعترض على قسمة الله.

وأحب الرجل أن يبدأ بزعيمة النساء في ذلك الوقت، فكتب خطابًا إلى هدى هانم شعراوي، يستحثها أنا تنادي بما طالب به من هذه المساواة، وكان الظن أن تقف المرأة معه، وتنادي بشذوذه الذي يعتقد أن يصب في دعوى تحرير المرأة، وأنها ستنادي به مجددًا ومصلحًا ومنقذًا للمرأة ليتساوى في الزعامة والصدارة بقاسم أمين، لكن حدثت المفاجأة المذهلة والذي سجلتها هدى شعراوي في مذكراتها، حينما ردت عليه بأنها، ليست موافقة على هذه المساواة التي ينادي بها، أمام ما قسمته الشريعة للمرأة، وأن النهضة النسوية في هذه البلاد، لا يجب أن تتشبه بأوروبا، فلكل بلد شريعته وتقاليده، وليس ما يصلح في بلد يصلح للبلد الآخر، كما أننا لم نلحظ تذمرًا للمرأة وشكوى على عدم مساواتها بالرجل في الميراث، لأن قناعتها بما قسم لها من نصيب، ناشئ من أن الشريعة عوضتها مقابل ذلك، بتكليف الزوج بالإنفاق عليها وعلى أولادهما، كما منحتها حق التصرف في أموالها.

ثم فندت شبهة أخرى مما طرحه فقالت: أما القول بأن عدم المساواة في الميراث، من دواعي إحجام المرأة بعض الشباب عن الزواج في الشرق، فغير وجيه، لأننا نشاهد في أوروبا، انتشار نفس الداء في عصرنا الحالي، أشد خطورة منه في الشرق، رغم أن المرأة الأوروبية ترث بقدر ما يرث الرجل، فضلا عن أنها ملزمة بدفع المهر، ومكلفة بالتخلي عن إدارة أموالها لزوجها.

وقالت: لو سلمنا بنظرية الأستاذ سلامة موسى وجاريناه في طلب تشريع جديد، فهل لا يخشى أن يؤدي ذلك إلى إسقاط الواجبات الملقاة على عاتق الزوج نحو زوجته وأولاده بالاشتراك في الصرف، وفي ذلك ما فيه من حرمان يعود بالشقاء والبؤس على الزوجات الفقيرات، اللاتي لم ينلن ميراثًا من ذويهن، وهذه الطبقة تشمل أغلبية الزوجات، ولا يخفى ما هن عليه من جهل وأمية.

ولعلك الأن تلمح من بعيد وأنت تقرأ هذا الكلام أو هذا الدفاع، نفس ما كان في هذه الحقبة من موقف سعد زغلول حينما ألف طه حسين كتابه الشعر الجاهلي، فهاجت الدنيا وماجت، وتحركت

مظاهرة طلاب الأزهر إلى "بيت الأمة" حيث يسكن سعد زغلول، الذي أطل من الشرفة على المظاهرة الغاضبة، معلقًا على كتاب طه حسين بقوله: "وماذا علينا إذا لم يفهم البقر"؟!.. ولقد ظلت هذه الكلمة تُوجع طه حسين، وتؤثر في موقفه من سعد زغلول إلى أن توفاه الله!..

وعندما قرأ سعد زغلول رد الأستاذ فريد وجدي على كتاب (في الشعر الجاهلي) ـ وكان وجدي قد أهدى نسخة منه إلى سعد زغلول ـ أرسل إلى المؤلف رسالة ـ تعلن عن موقفه من القضية.. وعن بلاغة هذا الزعيم العظيم.. وفيها قال:

"حضرة الأستاذ الفاضل محمد فريد وجدي.. وصلني كتابك الذي وضعته في نقد كتاب (في الشعر الجاهلي)، وتفضلت بإرساله إليّ، وقرأته في عزلة تجمع الفكر، وسكون يحرك الذكر، فراقني منه قول شارع للحق، ومنطق يقارع بالحجة في أدب رائع، وتحقيق دقيق في أسلوب شائق، وإخلاص كامل للدين في علم واسع، وانتصاف للحقيقة في احترام فائق، ومجموع من هذه الخصال استميلت منه قلبًا فياضًا بالإيمان، وعقلاً مثقفًا بالعرفان، ونفسًا محلاة بالأدب، فقررت عينًا بوجود مثلك بيننا، ورجوت الله أن يكثر من أمثالك فينا، وأن يجازيكم على ما تصنعون بتوفيق الباحثين والمتناظرين لاحتذاء مثالكم في دقة البحث، وأدب المناظرة، وإنكار الذات، والانتصار للحق، وبتوفيق الناس لاستماع أقوالكم وإتباع أحسنها، والسلام على المهتدين"..
سعد زغلول..

ما هذا الجمال وما هذه الروعة؟.. علمانيون يدافعون عن الإسلام وينصفون الشريعة؟!!

ولعل هذه الصور تلقي بظلالها على علماني اليوم، الذين ركبوا موجات التطرف والشذوذ والعداء للدين والانتقاص من الشريعة، ورفض الإسلام كلية، واتهامه بأنه سبب التخلف والظلام والتدهور، لنرى الفرق الشاسع بينهم وبين العلمانيين الأوائل، الذين كانوا متزنين منصفين في

كثير من آرائهم التي تحفظ الدين ولا تتعدى حدوده، وظهور نماذج تشبه الملحدين في التنكر للدين ووحي السماء.

هدى شعراوي وسعد زغلول.. يتحولان في هذين الموقفين إلى حماة للدين من المعتدين عليه، والمتجنين على أحكامه، إيمانًا منهما بضرورة الحفاظ على هوية الوطن ودينه ومعتقده، ويبعثون برسالة من هذا الزمن الغابر، إلى هؤلاء المبتذلين الذين شاقوا الله ورسوله، ويريدون أن تنسلخ مصر من دينها وانتمائها لإسلامها.

حرب الرمزية الشرسة

كم هو ذكي عدوك ذكاء وهو يتحرك عن فهم ووعي وعلم، و يؤمن إيمانًا أكيدًا بقوة الرمز وفاعليته وأثره، وقدرته على انبعاث مضمونه مرة أخرى.

فهو تمامًا في نظرهم كهذه النار الراكدة تحت الرماد، والتي يمكن لها أن تنبعث مرة أخرى لتحرق كل ما حولها، وتكون شديدة في حموتها ولهيبها أكثر مما كانت عليه سلفًا.

ومن هنا كانت مراحل العداء لا تنتهي أبدًا بهزيمتك وتجريدك من سلاحك، وإنما القضاء على كل ما يرمز إليك، ويمثل فكرك ويشير إلى كيانك ووجودك، ويذكر الأبصار بك ، وطالما أنك حاضر في البصر، فأنت لا شك حاضر في العقل ، وما دمت حاضرًا في العقل، فما أسرع حضورك في الواقع والحياة.

العلمانيون والملاحدة مثلا، في الفترة الأخيرة، علا صوتهم وحققوا انتصارات ميدانية، وأفسحت لهم منابر الإعلام ومنصاته، لكنهم وبعد انحسار الصوت الإسلامي، والخرس الذي ساد في أوساطه، أمام مما يثيرون من شبهات وأهواء، وما يحيكون من مؤامرات، خرجوا من هذا الاطار إلى حرب أخرى، وهي حرب الرمزية، والقضاء على الرمزية، فصاروا يحاربون الأزهر ومناهجه

وعلماءه، ورغم كونه مؤسسة رسمية تتبع الدولة، إلا أنه في نظرهم يمثل الإسلام ويرمز إليه، ولا بد من الإجهاز عليه لتنحيته من الوجود!!

حتى التيارات السلفية التي كانت سندًا لبعض ميولهم ومؤيدة لكثير مما أيدوه، هاجموها ولم يرحموها، وتناسوا دورها وجهودها، لأنها تمثل الرمزية التي يمكن لها أن تحقق حالة البعث المخيفة للتيار الديني الذي يعادونه.!

من كان يتصور أن تتم مهاجمة الشيخ الشعراوي، الذي نزر حياته للعلم والدرس وشرح القرآن، دون التدخل في سياسة الدولة أو معارضة الأنظمة.؟!

لقد كان الرجل مسالما حسب منهجه، ومنكفئًا على دروسه ويعرف دوره، لكن السفلة وبعد موت الرجل، خرجوا ينهشون عرضه، ويهدمون سيرته، وينسبون له كل تطرف وانحراف، وما كان الشيخ كذلك أبدًا، ولكنه الغلو في العداء، والانتقال السريع للحرب الرمزية، التي أعمتهم عن التمييز، و التي يجب أن ينجحوا فيها كما نجحوا في سياسة الإقصاء والتنكيل والإلجام.

حينما احتل الغرب بلاد الاسلام، وسقطت في يديه كل الأقطار والبلدان التي كانت تمتلكها الخلافة العثمانية، لم يكتفوا بذلك وانتقلوا للرمزية، فكان لابد من القضاء على هذه الخلافة ومحوها من الوجود، لأنها الرمز المباشر لجماعية المسلمين التي لا يرغبون فيها.

يقول الدكتور محمد عمارة: " لقد غدت الخلافة وعاء بلا مضمون فاعل، ورمزًا لا يخفق فعلا في أرض الواقع، لكن الغرب لم يكن يرضى بأقل من تحطيم هذا الوعاء وإزالة رمزيته، حتى لا يبقى للمسلمين أمل في ترميم هذا الوعاء وملئه بالمضامين الفاعلة، فيتحول إلى راية جامعة للأمة في صراعها التاريخي مع الغرب"

كرومر اللعين قال حينما جاء إلى مصر: " جئت إلى مصر لأمحو ثلاث القرآن والكعبة والأزهر"

قال هذا ومصر ضعيفة هزيلة كسيرة محطمة محتلة ضعيفة، يسيطر الاحتلال على مقدراتها ومنافذها، ويجسم على أنفاسها، لكنها الرمزية وحرب الرمزية، التي يمكن لها وبكل سهولة أن تستعيد الماضي، وتبعث الأمة، وتنهض بالمقاومة بمجرد الكف عنها وتركها.

وما كان قول وليام جيفور : "متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيدًا عن محمد وكتابه" بعيد عن هذا.

بل إن صراع الغرب تجاه الرمزية، قد بلغ حدًا من التطرف غير مسبوق، حيث يقول غلاديستون: "ما دام هذا القرآن موجودًا، فلت تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان"

يقول هذا الكلام الخطير الذي يتعلق بالوجود وغير الوجود، والأمة الإسلامية أبعد ما تكون عن الالتزام بتعاليم هذا القرآن، والعمل بأحكامه، وتطبيق شرعه، يقول هذا، وهذه الأمة صاحبة هذا القرآن، في حالة ضعف عظيم، وبينها وبين أمم الغرب من التقدم وأسباب القوة، كما بين السماء والأرض، ولكنها في نظرهم كأسد كسيح لا يقوى على المشي والحركة، و لا يؤمنون ولا يسلمون أبدًا لهذا العجز وهذا الشلل، لأنهم إيمانهم بأنه أسد، وأن اسمه أسد، أفقدهم الثقة في أي مرض أصابه، أو علة أقعدته.

زمن العلمانيين البرابرة

كنت كثيرًا ما أتعجب قديما حينما كنت أرابط على منافذ بيع مكتبة الأسرة، وهو المشروع الذي يعد من حسنات سوزان مبارك المعدودة، حتى أكون من السابقين لنيل الإصدارات الجديدة من الكتب الأدبية والفكرية التي يصدرونها للقراء.

كان هذا المشروع من أعظم ما قدمته حكومة مبارك للثقافة والمعرفة، ورغم ما كان يشوبه بعض الهنات من الإصدارات التي تعج بالتجاوز، فقد كان في نفس الوقت يمنحنا بعض الإصدارات

التي كنا نتعجب منها ونندهش لموافقتهم على إصدارها مثل كتب الشيخ الغزالي، وكتب مفكرنا الرحل محمد عمارة وخالد محمد خالد وبعض الأعلام الكبار من رموز الإسلام المفكرة.

حتى التلفاز، كانوا يسمحون فيه ببصيص من الأضواء للمخالفين، فكانت بعض البرامج تستضيف الشيخ الغزالي ومحمد عمارة والدكتور الراوي، وزغلول النجار وغيرهم.

كانت فترة ترفع شعار المهادنة، والسلم والتواؤم رغم التضاد والتباين.

كنا نؤمن ونعرف أن من يسيطر على وزارة الثقافة ومنصات التوجيه والفكر في مصر، علمانيون وبعض اليساريين الذين يختلفون تمام الاختلاف مع التيار الديني، لكنني أمام هذه الإصدارات الطفيفة التي كانوا يسمحون بها لمخالفيهم ،كنت أؤمن أن هؤلاء اليساريين والعلمانيين من النوع الهادئ والمسالم والمستأنس، الذي يحتكم إلى بعض الموضوعية، ولا يركب شطط الغلو على طول الخط، ومن هنا كانت هذه الإطلالات.. كما لابد من الإشادة بمواهب هؤلاء المبدعين من رموز التيار الديني، فهذا الابداع هو من جعل خصومهم ينظرون إليه نظرة إعجاب، ويقفون منه موقف انبهار لم يسعهم وقتها إلا أن ينشروه ويروجوه.

بعض العلمانيين يظن أو يتصور أن بعض الرموز الإسلامية معتدل وبعضها متطرف، والسبب في هذا هو اطلاعه على خطاب بعض منها، وجهله بخطاب الأخرين، ولو أنه أوغل في خطاب الكثيرين منهم وطرحهم، لأدرك الاعتدال في خطاب الأغلبية..

لكننا اليوم وللأسف بلينا بصنف من العلمانيين البرابرة المتوحشين، الذين لا يقبلون خلافًا ولا يرحبون بمهادنة، ولا يطيقون أن يسمعوا أو يروا صورة من يخالف عن طريقهم، ويودون لو أنهم رفعوا بدل القلم سيفًا يمزقون به أجساد المعادين.. وهذا النوع من العلمانيين الذين يرفعون شعار القمع حتى آخر نفس، هم أبشع أنواع العلمانية وأقذر صورها، والتي تخلق في البلاد حالة من التوتر والاضطراب، بعد أن أشعلت النار في كل منافذ الحرية للرأي والتعبير.

ندرك أن كثيرًا منهم كان على خط الاعتدال، لكن الذي غيره وأشعل نار الحقد في نفسه، وأجج زمهرير الغيرة في ذاته وقريحته، حينما شاهد صعود نجم الاسلاميين سياسيًا، فلم يستطع أن يتمالك نفسه أو يضبط خلقه، وبين عشية وضحاها وجد نفسه متطرفًا لا يدعو للفكر ولا يؤمن بالحوار، وإنما يرفع شعارًا واحدًا لا يؤمن بغيره وهو، القمع والفناء.. فإما أن نكون أو لا نكون.!

انظر حتى لأبرز جرائمهم وهي جريمة التعتيم، والتي تعني حرمان جماهير الأمة، من التعرف والاستمتاع واكتشاف أعاظم الأعلام من قادة الفكر والأدب الميامين.

فالقوم يمارسون نوعًا من القمع الثقافي والتعتيم المعرفي، لكل من لا يروق لهم أو يرونه في فكره ينحاز للفكر الديني، وقد يكون هذا المجني عليه عملاقًا من العمالقة، وقدم تراثًا ضخمًا قويًا يمثل مفخرة لأمته، ولكن كل ذلك لا يهم، فهم على استعداد لأن يرموه في سلة المهملات، لمجرد أن له بعض ميول دينية، ناهيك عن أن يكون كله ديني.

انظر مثلا للرافعي ومحمود شاكر وسيد قطب، وغيرهم كثيرون من أعلام الأدب وأعمدة الثقافة، يتم تجاهلهم وقمع تراثهم لخلفيتهم الدينية، وإن العالم كله ليتعجب! كيف لبلد كمصر ينشأ فيها نابغة مثل الرافعي، ولا تقيم له التماثيل وتعرض قصة حياته في أفلام ومسلسلات متتابعة، وتُدرس في المدارس أدبه وبيانه، وتُعرف الجيل به، وتؤكد له أن هذا الأديب مصري ينتسب لمصر، وهو أعجوبة من أعاجيب الزمن.؟ ولكن لأنه الرافعي ومعلوم من هو الرافعي، ولخلفيته الدينية ولجهوده الضخمة في الدفاع عن التراث والدين، تتم التعمية عليه وتجاهله، بينما تفتح الميادين لطه حسين وغيره من أعلام التغريب واللادينية.

بل تبقى قضية التعتيم في حق وجناب العلمانيين وأذنابهم قضية ثقافية تستحق الدراسة والتأمل والبحث العميق في كارثيتها، فقد كانت لها صور وأشكال، حين بلغ بهم الأمر أن يعتموا على بعض مراحل التغير الفكري لدى كثير من المفكرين، كطه حين مثلا، والذي كان في مراحل حياته

الأخيرة كما يشير ويقرر أحد الباحثين العمالقة، بأنه قام برحلة إلى الحج وتعلق بأستار الكعبة، ولما طُلب منه طبع بعض كتبه التي أثارت عليه الشقاق بما تحمله من دعوة للتحرر من التبعية الإسلامية، وانتهاج مناهج الغرب في كل أحواله وظروفه وثقافاته، لقد رفض طه طبع هذه الكتب ، وله حوارات صحفية يشيد فيها بشمولية الاسلامية وصلاحيته بتعاليمه لكل زمان ومكان، لم يشر هؤلاء إلى هذه الحقبة التي كانت منعطفًا في التغيير الفكري عند طه حسين، وكان من الخير أن يعتم عليها حتى لا تكون إشارة ودليلا بإيمانية الرجل وأوبته للحق، ونقض كل من سلف له من أفكار تمثل عمادًا يبني عليها المتغربون نظرياتهم وآرائهم.!

وكل هذا يؤثر سلبًا على عقلية المصريين وتكوينهم الثقافي، ومن هنا لا نرى عجبًا حينما نبصر بأعيننا شبابًا جاهلا بدينه وتراثه وحضارته، ويقاوم أفكار الدين في كل مكان، جهلا بها وغفلة عنها، لا نعجب حينما نرى موجات وصفحات للملاحدة، تتغنى كل يوم بما يخالف الدين والعقيدة والحقائق الإسلامية.

لقد كان لجهود اليساريين في مناصب الثقافة، نتائج كارثية على طبيعة التدين في وجدان الشعب المصري، وما نعانيه اليوم من تبعاتهم وآثارهم للأسف.

لكن يبقى سؤال مهم جدًا وهو، ماذا لو كان الإسلاميون هم في منافذ التوجيه ومناصب الثقافة؟ هل كانوا سيتيحون الفرصة لغيرهم أن يظهر ويعبر عن نفسه وفكره، أم كانوا سيقمعونه ويوئدونه؟

أعتقد أن الإسلاميين وقتها سيكونون شرسين جدًا، خاصة وأنهم ينطلقون من منطلق ديني، وربما يحكمون بالردة والكفر على المعارض، وهو قمع عظيم لا يتناسب في معركة الدعوة.!

وهو ما دعى بالكثيريين أن يختاروا المجتمعات العلمانية التي تتيح لكل الأفكار ان تظهر وتعبر عن نفسها، دون المساس بحرية الفكر والمعتقد، وعلمانية هذه المجتمعات ليست شبيهة بعلمانية مجتمعاتنا، لأن العلمانية في بلادنا علمانية فاشية شرسة العداء فاجرة الخصومة.

تذكروا الله في إبداعكم

أيها الأديب المسلم، إن دينك يحمل ميثاق العدالة والانصاف لبني الإنسان، ولا يوجد بشواهد التاريخ والواقع والنصوص، أثمن منه في تقدير البشر وتكريم الإنسان، أي أنه رسالة يجب أن تعيش لها كما تؤمن بها، فهل سألت نفسك يومًا في ضوء عملك وموهبتك وقدراتك الابداعية: ماذا قدمت لهذا الدين؟

وماذا وكيف دعمت بموهبتك رسالته وقيمه؟

أعرف أناسًا من زمرة الأدباء، يحملون ملة الإسلام، وآباءهم شيوخ في الازهر، وأسماءهم باسم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك لا يصلون ويشربون الخمر، ولا يصومون رمضان، ولكنهم مبدعون وأدباء ولهم روايات جميلة، وقصص فائقة، وجمهور يصفق لهم.

ومن المصائب التي حلت على تصوراتنا للأدب والأديب، أن يكون الأديب علمانيًا أو شيوعيًا أو ملحدًا، لأن هذه الصفة التي لازمت كثيرًا من الأدباء، أو هكذا صورت لنا بعض وسائل الإعلام.

والحق أن هذا إفك كبير، فلو نظرنا ورجعنا لتاريخ عباقرة الصحوة الأدبية الأول في مصر، لوجدنا أن حظ الدين من كتاباتهم باهظ كبير، ووجدنا منهم من أسهب في الكتابات الإسلامية حتى قيل عنه: أنه أقوى من دافع عن الاسلام في القرن العشرين، ولو نظرنا لتراث أمير الشعراء شوقي، لوجدنا الرجل ذو صبغة إسلامية وانتماء ديني عنيف، وكذلك حافظ رحمهما الله.

فلماذا إذن لا نحاكي هؤلاء الأدباء والشعراء في أصالتهم وتدينهم واعتزازهم بهويتهم، فيكون لها من إبداعنا نصيب؟!

إن قطاع الأدباء من الشباب الناهض، في حاجة كبيرة إلى استرجاع هذا الماضي من قادة النهضة الأدبية الحديثة في مصر، في حاجة إلى محاكاتهم وتقديم واجبه ورسالته نحو دينه وأمته، كما فعل السابقون تمامًا، فقد كانوا يتصورون نعمة البيان التي حباهم الله بها، نعمة لابد أن يؤدوا شكرها وذكاتها لربهم سبحانه.

إن الأديب الفج هو ذلك الذي يفجر بقلمه، فلا يتورع أن يكتب فيما يغضب الله، وتغريه جماهير ضالة ساقطة ليعصي الله سبحانه وتعالى، ولكن اسمه في تاريخ الحياة الأدبية لاشك سيدون في دفاتر الساقطين، وأديب آخر لا هم له إلا أن ينافق بقلمه ويجامل بأدبه، فلاشك أن مثلة سوف يكون اسمه لّماعا في ديوان المنافقين.

لقد حمل الأدباء الأول كالعقاد والرافعي وشوقي وحافظ وغيرهم كثير، حملوا على عاتقهم عبء الدفاع عن الأصالة الإسلامية والثوابت الدينية بل والدفاع عن اللغة العربية أمام الاستعمار والغزو الفكري، فقدموا ما يُبهر الألباب ويروي المهج.

لكن الاستعمار لم ييأس من غرضه، ولم يفتر عن هدفه، حين ظل يكافح ويجاهد، حتى رأينا ثماره البالغة في جيل من الأدباء لا تشغل الهوية والانتصار لها في وجدانه شيئًا، بل نجزم اليوم أن سمة الأدباء القدماء في أدباء اليوم أو غالبهم تكاد تكون معدومة مبتورة، وإذا قرأت سطورهم وجدتها هابطة القيمة لا تحمل رسالة ولا تنتصر لدين.

إنني لست واعظًا يعظ، رغم أنني أحمل شهادة الواعظين، ولكني كاتب أحاول رد الأدباء إلى أصولهم، وتذكيرهم بسلفهم، تراثًا ورجالا.

وما أروع وصف شيخنا الغزالي لمهزلة الأدب العصرية من قوله: "إذا كان الأدب مرآة أمة ودقات قلبها، فإنّ المتفرس في أدب هذه الأيامِ العجاف، لا يرى فيها البتةَ ملامح الإسلام ولا العروبة، ولا أشـواق أمـة تكافح عن رسالتها وسياستها القومية وثقافتها الذاتية، ما الذي أراه في صحائف هذا الأدب، لا شيء إلا انعدام الأصل الهدف، والتسول من شتى الموائد الأجنبية، وحيرة اللقيط الذي لا أبوة له»

إن الأدب المنحرف في أيامنا هذه هو فعلاً كما قيل: مثل اللقيط الذي لا أبوة له، بالإضافة إلى ذلك، هو كالشجرة الخبيثة التي قد تغري الناس بأوراقها الزاهية، ولكن طعمها كالعلقم، وأثرها في الأرض وإن فشا سينعدم.

لا تخوضوا في غير ميدانكم

أكبر خطيئة حينما يكتب الأديب والقصاص في الفكر، ويظن أن القلم الذي اعتاد استنطاقه في الخيال، قادر أن يستنطقه في الأفكار، ساعتها سنرى ما تشيب له الولدان شيبًا، وما تكاد السماوات يتفطرن منه، وتخر الجبال هدًا.

إن نضج الخيال لا يعني نضج الأفكار، وخصوبة الدراما لا تعني خصوبة العلم والوعي.

أنت تحتاج لكي تعبر عن رأيك أن يكون سليمًا، ولن يكون رأيك سليمًا حينما تكون لك ثقافة العوام، اقرأ وتعلم وادرس وتبحر، حتى يستوي عقلك، وتتهذب روحك، وتصقل آراءك، وتتسع مداركك، وتصيب استنتاجاتك، وتستقيم تحليلاتك، ساعتها يمكن أن يتكون لديك رأي تعرضه وتنشره، ولا يشعر القارئ منه وأمامه بسفهك وقلة خبرتك، وضعف رؤيتك.

يعجبني ذلك الأديب الذي يحترم نفسه، ويحترم فنه قبل أن يحترم نفسه، ويؤمن بتخصصه وميدانه، ولا يغريه التصفيق والإطرائيات فتقوده إلى بحر لا طاقة به، ولا سلاح معه في معركته.

الزم بيتك وساحتك، ولا تخوض بحرًا أعمق من قدراتك، حتى لا تضل وتُضل.

اقرأ في صفحات بعض الأدباء الذين تعجبني قصصهم، آراء في السياسة والدين والاجتماع والثقافة، فأضحك ملء شدقي من جهلهم، وقلة حصيلتهم، وقد كتبوا فهما لا يكتبه العوام، وإن من العوام من هو أعمق فهما وأهدى سبيلا، وليتهم اقتدوا بنجيب محفوظ الذي كان يعجبني، في التزامه بفن الرواية، ورغم ثقافة الرجل، إلا أنه لم يخض ميادين الفكر، لأنه كان يحترم فنه، وكان يصرح بذلك: إنني ركزت في الرواية.

أما الذي يظن أن القلم يكتب في أي شيء، فهو مخدوع مغرر به، فالذين يصفقون لك في القصة، ستكشف أمامهم عوراتك، لتصغر أمامهم، وتهدم في أعماقهم، ما بناه إبداعك الروائي.

الفكرة لكي تكون من أصحابها، ولكي تنمو جذورها مكينة في عقلك، تتطلب رحلة طويلة، من الثقافة العميقة، والقراءة الثاقبة، والاطلاع الوافر.

ألا تعلم لماذا نرى كثيرًا من الأدباء يلحدون؟ ولماذا نراهم ينحرفون؟ ويصطدمون مع الأديان والقيم والموروثات، ويتمردون علي القيم والثوابت؟

لأنهم جهلاء في المقام الأول، لم يدرسوا ولم يتعلموا، وليت الجهل يصيب العقل، بل يصيب الروح ابتداء، فلا تشعر بانتماء ولا تقدير ولا هوية ولا احترام، وتظل تعدو في مرابض الجهالة، تقدم الإفك والزيف والزور، باسم الفكر والحرية، وهم أضعف من أن يتكلموا في أمره، أو يعرضوا دقائقه.

هناك حالات جمعت بين الأمرين، وقدمت جمالا في الميدانين، لكن الأكثرية الغالبة تقع في فخ الإغراء، إغراء القلم، الذي يوعز لهم، أنهم يمكن أن يكتبوا في أي شيء.!

انظر هنا في هذا النص الجاحظي، لتعلم أن المرض قديم وليس وليد العصر، يقول الجاحظ في رسائله:"وقد يكون الرجلُ يُحسن الصِّنف والصنفين من العلم، فيظنُّ بنفسه عند ذلك أنَّه لا يَحمل عقله على شيء إلا نفذ به فيه، كالذي اعترى الخليل بن أحمد بعد إحسانه في النحو

والعروض أن ادَّعى العلم ... بأوزان الأغاني، فخرج من الجهل إلى مقدارٍ لا يبلغه أحد إلا بخذلان الله تعالى."

الغرور دومًا ما يضر بأصحابه ويوردهم موارد الخطأ.. بل يدفع هذا الغرور كثيرًا من الناس أن ينزلوا مواطن غير موانهم، ويخوضون ميادين لا تخصهم، ولا يعرفون عنها أي شيء.. انظر مثلا للفيس بوك الذي اقتحم حياتنا، وقد جعل أغلب الناس فلاسفة ومنظرين وحكماء وسياسيين وعلماء ومصلحين، وغير ذلك من ألوان الحكمة في الحياة.

وظهر علينا كل زاعق وناعق، يهرف ويهتف بما لا يعرف، ويخوض خوض الأبطال في كل المجالات والعلوم والآراء، وهو يجهل أنه يبرز جهله ويُضحك الناس عليه.

وأغراه في هذا الوادي السحيق، تصفيق وتهليل بعض الجهلاء مثله، فظن نفسه أنه بارع وموهوب ولوزعي سديد الرأي والفكر، وقديمًا قال ابن حجر في مقدمة فتح الباري: "وإذا تكلَّم المرءُ في غير فنِّه؛ أتى بهذه العجائب" وقال الجُرجانيّ رحمه الله في دلائل الاعجاز: "إذا تعاطى الشيءَ غيرُ أهله، وتولَّى الأمرَ غيرُ البصير به؛ أعضل الداء واشتدَّ البلاء" وقال السّمعاني رحمه الله في القواطع: " فإن مَن خاض فيما ليس من شأنه؛ فأقلّ ما يُصيبه افتضاحُه عند أهله"

قد يزهو بعض الناس بعقله، ويُعجب برأيه، ويتفوق في فن من الفنون، فيغريه تفوقه، ويصور له أنه يمكن بهذا العقل الألمعي الذكي، أن يفتي في كل شيء وكل شأن، وقد جمعتني المجالس بكثير من هذا اللون من أساتذة الجامعة، ممن تخدعهم عقولهم فيتصورون هذا التصور، حتى بدى منهم ما يدهش الألباب، ويحير النظر من عجائب الجهل والخطأ.

الفيلسوف الدكتور عبد الرحمن بدوي، كان من أكبر المثقفين الذين عرفتهم مصر، وأقوى العقول فيها، فقد أدهش الأمة بقوة التفكير والبراعة في ميدان الفلسفة الوجودية، التي هي ميدانه الفسيح، والسيد المشار إليه فيها، فكان مع هذا ممن وقع في شرك هذا الخطأ، حينما قام بتحقيق

كتاب الاشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي، فوقعت منه أخطاء فادحة، وأغلاط متعددة، نبهه إليها المحقق الأستاذ السيد صقر، وانتقده ببضع مقالات في مجلة الثقافة، أبرزت مواطن هذه الأغلاط.. وقد كان الأولى بالدكتور بدوي أن يظل علمًا في ميدانه، ويترك تحقيق التراث لفحوله المتبحرين فيه والعارفين بفنه، كان الأولى به وهو الغيور على نفسه أن يجنبها شماتة الشامتين، وفرحة الحاقدين.

نفس الشيء وقع فيه كثير من المستشرقين في تعريفهم للثقافة الاسلامية، التي هم بعيدون عن بيئتها وأصولها ومعارفها تمام البعد، لقد اعتمدوا في شرح هذه الثقافة على عقولهم، واستندوا إلى مناهجهم البحثية التغريبية في التقييم والشرح والتقديم، فكثر الخطأ وتعددت الأغلاط، حتى أتوا بالعجائب.. يمكن لمجال التحقيق أن يكون سهلا في الجمع والترتيب والفهرسة، أما أن تدخل إلى عمق النصوص، وتستبيح دروبها وأنت جاهل بمعالمها، وكيفية التعامل معها، فسوف يكون ضلالا كبيرًا، وهو ما رأيناه وعلمناه في كثير مما خاضوه في السيرة النبوية، وتفسير آيات القرآن الكريم، ومنهم من اعترف بقصوره وخطئه، مثل: آربري الذي قال للدكتور مصطفى السباعي: "إنَّنا – نحن المستشرقين – نقعُ في أخطاء كثيرة في بُحُوثنا عن الإسلام، ومن الواجب ألاَّ نخوضَ في هذا الميدان؛ لأنَّكم – أنتم المسلمين – العرب أقدرُ مِنَّا على الخوض في هذه الأبحاث"

انظر معي هنا لبعض تأويلاتهم الغريبة المريبة لبعض آيات القرآن الكريم التي تثير الدهشة والضحك:

* قال تعالى: " صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ " [البقرة: 138]

ترجمها أحد المستشرقين فكان معنى ترجمته: " صباغة (تلوين) من الله، لكن من ذا الذي يمكنه أن يصبغ (يلوِّن) أفضل من الله، عندما نعبده؟ "والصحيح أن معنى " صِبغة " في الآية الكريمة:

الدين، وسمي بذلك؛ لظهور أثر الدين على صاحبه كأثر الصباغ على الثوب، ولأنه يلزمه ولا يفارقه كالصبغ في الثوب.

* قال تعالى: " وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ " [الإسراء: 13]

زعم أحد المستشرقين أن القرآن يقول إن الكافر يأتي وفي رقبته حمامة يوم القيامة، والصواب أن الآية الكريمة تتحدث عن ما يراه الناس يوم القيامة في صحائف أعمالهم من نتيجة العمل الدنيوي، إن عمل خيراً فسيرى خيراً، وإن عمل شراً فسيرى شراً.

* قال تعالى: " إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ " [الأنبياء: 98]

تدخل أحد المستشرقين لتصحيح كلمة " حَصَبُ " ـ بزعمه ـ فقال: " إنه ينبغي أن تكون الكلمة هنا "حطب"، فهي الكلمة التي تعني الخشب للنار.. وإنه لسهل جداً التصور كيف حصل هذا الخطأ عند كتابة " الحطب " نسي الناسخ وضْع الخط العمودي للطاء فأصبحت الطاء صاداً.

أما الصواب في ترجمة معنى الآية الكريمة فإن الآية تتحدث عن عملية التحصيب (الرمي والإلقاء) ولا تتحدث عن الوقود. فـ " الحصب: اسم بمعنى المحصوب به، أي المرمي به. ومنه سميت الحصباء؛ لأنها حجارة يرمى بها، أي يُرمَون في جهنم.

* قال تعالى: " وَتَرَى المَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِحُوْنَ بِحَمْدِ رَبِهِم ". [الزمر: 75]

زعم أحد المستشرقين أن الآية تخبرنا بأن الملائكة " حفاة الأقدام "والصواب أن معنى " حَافِّيْنَ " أي: " مُحيطين مُحدِقين به، يقال : حفّ القوم بفلان إذا أطافوا به "

وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة الغريبة التي لا يتسع المقام لنقلها، لكنها على الأقل يمكن أن تكون إشارة لكل الباحثين الناهلين من معين المستشرقين، حتى يتجنبوا كثيرًا من هذه الهلوثات

المغلوطة، في مناحي الثقافة الإسلامية، وأن يكونوا على حذر في النقل عنهم، والأخذ من تأويلاتهم كما فعل كثير من باحثينا ومفكرينا، فقدموا لنا خللا كبيرًا في الفهم والتفسير.!

وحيد حامد بين الجنة والنار

بعض العلمانيين واليساريين جعل من وفاة السيناريست وحيد حامد، مندبة ومحزنة، وفرصة ليروج أمام الناس بأن رحيلة شاء أن يفضح المتأسلمين، ويكشف عن طبيعة هذا التيار القائم على التطرف والتكفير والانحراف، وأن ردة فعلهم على وفاته طبيعية لأنهم متطرفون وهو عدو التطرف، أو فاضح التطرف، هكذا يدعون ويروجون.!

ولكن دعونا قبل كل شيء أن نتحدث بصراحة، فالرجل في الحقيقة لم يكن الا كاتبًا علمانيًا، شأنه شأن كثير من الكتاب العلمانيين الذين لا يطيقون أن تذكر أمامهم كلمة ديني، وتلك حقيقة يجب أن يقف عليها كل من يحبه أو يتعاطف معه، ويسلم بها ويذكرها في حديثه عنه، ومن قاومها وأنكرها فما عليه إلا أن يرجع أدراجه للوراء، ويتذكر مسلس العائلة الذي أذيع في التسعينات، وأنكر فيه عذاب القبر كمعلوم من الدين بالضرورة، وثابت ثبوتًا قطعيًا في القرآن والسنة، ثم أترك له الحكم بعد ذلك في موقفه من الثوابت الدينية، بل يرجع إلى معظم أفلامه التي كان حتمًا ولابد أن يخصص جزءًا منها لتشويه صورة المتدينين، وإظهارهم في مظهر لا يليق ولا يعبر عنهم التعبير الحقيقي المنصف، حتى وكأنه كان متخصصًا في هذا الأمر ولا يرى لنفسه ولا لفيلمه نجاحًا إلى دس هذه الصورة المغلوطة عن الدعاة إلى الله.

لست أدعي هنا أن التيار الديني هو الاسلام، وأن من حاربه فقد حارب الإسلام، ولكن المشاهد أنه التيار الذي يمثل صبغة هذا الدين، كما أنني لست بمحضر الجنة والنار، حتى لا يجدها المغرضون فرصة يهتبلونها، ويدعون أنني أملك صكوك الغفران، وأدخل من أشاء الجنة ومن أشاء النار، ولكني وضعتها في العنوان، حتى أجذب نظر العلمانيين إليه ليقرؤوه، ويجدوا ما

يملأهم خجلا إن كانوا يخجلون، كما أني لا أدعي أنني أدافع عن جماعة بعينها، فيؤخذ هذا الكلام شبهة او تهمة ألام عليها.

لكن الرجل مما لا مرية فيه، عمد إلى تخويف الناس وترويع الشعب، من طلائع هذا التيار الديني، الذي كان يحمل قيم الإسلام وينادي بصوته، وبالفعل لا ننكر أن هناك تطرفًا وتجاوزًا وانحرافًا، شأن أي فكر وأي تيار وأي جماعة، كان يمكن له أن يسلط الضوء عليه، لكن الراحل حاول أن يصور للأمة كلها، أن التيار الديني، والشباب المنادي بصحوته، ما هم إلا حفنة من المجرمين المتطرفين التكفيريين.

ومن ثم تركت كل أعماله وزيوفه، فكرة مؤرقة عن التدين والمتدينين، أنهم متخلفون رجعيون حمقى منحرفون، بينما الواقع والحقيقة غير ذلك، يلمسها على أرض الواقع، كل من يحتك بهذا التيار بمجموع طوائفه، ليرى فيهم العلماء والأطباء والمهندسين والمفكرين والفنانين.

مرة أخرى أؤكد أنني لا أدافع عن جماعة من الجماعات، ولا أقف ضد الرجل، لأنه كذب وافترى على طرف منها، وإنما كل غضبي أن ينعت هذا التيار الكبير، الذي يمثل رقعة كبيرة من أبناء مصر الأبرار، بمثل هذه الأكاذيب.

يحاول العلمانيون أن يزينوا خباثة الرجل، فيقولون: إنه ركز على طائفة من المتدينين، ولا يقصدهم جميعًا، فهو يركز على مرض موجود ويحذر منه، ولكن بالله عليكم، ذكروني بعمل واحد كتبه وأنصف فيه هذا التيار، وذكر بعضًا من إيجابياته إن كان يرى له إيجابيات؟

لقد كان في نظره سوءًا في سوء... لا لأن هذا التيار فعلا تيار سوء، ويمتلئ بالسيئين، ولكن لان هذا التيار يدعو للإسلام الحقيقي، الذي من الطبيعي أن يبغضه كاتب علماني مثله، متبرم من الأفكار التي تمليها العقيدة.

الخاوية عقولهم حاولوا بموت وحيد حامد أن يدعوا أن الإسلاميين أعداء الفن والجمال والذوق والشعر والقصة والرواية، ولكنها شبهة ساقطة، فهم دعاة التراث، الذي يمتلئ بالغزل وقصائد الحب، التي صاغها الشعراء في غاية الإبداع، ومنهم أديب من أعظم أدباء مصر في القرن العشرين، وهو الدكتور نجيب الكيلاني صاحب الروايات الشهيرة الممتعة.

إنهم ليسوا أعداء الفن، فمنهم الممثلون والمنشدون، ومنهم حتى الأساطين في كرة القدم، ولكن الحقيقة أنهم أعداء الكذب والخسة وعدم الإنصاف، التي كان يسير به وعليه منهج وحيد حامد..

علينا أن ننتقل من عداء الراحل الكريه للتيار الديني، لنكشف الحقيقة التي يراوغ فيها البعض من كرهه للدين نفسه، أو حقيقة الدين الذي يفهمه بطريقة خاصة ومغايرة للفهم الذي جاء به الله ورسوله .. ومرة ثانية أكرر وأضع تكراري غصة في حلق كل ماكر صياد في الماء العكر، يحاول أن يقتنص من كلامي شبهة التكفير والتطرف، وادعاء زائفًا أنني أعلن حكمي في مصائر الراحلين إلى الجنة أو إلى النار، فشأنهم عند الله، ومقامهم لديه سبحانه، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفى عنهم، لكننا لنا حكمنا في الحياة، في ضوء السلوك والأفعال، فنحن شهداء على ذلك.

يزعم الماكرون أن وحيد حامد لم يهاجم التطرف الديني فقط، وإنما هاجم الفساد في القطاعات الحكومية، وعكس صورة الشعب المطحون، ولكن ذلك كله لم يكن إلا وسيلة للتعمية على دوره الضخم الذي أنيط به، وركز عليه لضرب مستقبل الدين في مقتل.

يمكن لنا بكل سهولة أن نقول: إن هذا الرجل ترك سمومًا في عقول المصريين، وشوه تيارًا كل ذنبه أنه انتسب لهذا الدين، وحاول الدعوة إليه بالحسنى والموعظة الحسنة..

اطلق لحيتك وانزل إلى الشارع، ثم اجعل هناك من يميل على أي إنسان يمر بجوارك، واسأله عن انطباعه النفسي عن أصحاب هذه اللحية؟ لتجد فكرة التطرف أسرع ما يقفز إليه من الأفكار، بفضل وفعل ومكر وحيد حامد.. وأمام كل هذا، لو حاول أي إنسان يكره هذا الرجل، ويعلن

عن بغضه له بأي عبارة أو إشارة، لهاج العلمانيون وماجوا، وزعقوا وصاحوا وقالوا: انظروا إلى بشاعتهم وإلى قسوتهم وإلى تطرفهم، تجاه رجل رحل إلى الله؟ بدلا من الدعاء له بالرحمة، يلعنونه ويطلبون له النار والجحيم.!

ولكن هذه النظرة الأحادية والنتائج السلبية، لا تلغي أبدًا أسبابها التي أججها الراحل بالكذب والزيف والافتراء، وجعلت قطاعًا بسيطًا ضئيلا يتعامل مع موته بروح التشفي والعداء.. وكنا نود أن نرى هذه الغضبة المضرية، وهو يهول ويكذب ويشوه، ويفتري على الحقيقة وينكر حقائق الدين التي لم يعتذر عنها.. وحيد حامد حاول بكتاباته عن التيار الديني، أراد أن يتحول من صفة الكاتب، إلى صفة المفكر، كان يريد أن يماثل فرج فودة، في ترهاته وجنونه ومجونه، لكن الثقافة لا تسعفه، فلم يجد إلا أن يعتمد على الخيال، المحمل بالأكاذيب والمفتريات.

وفي النهاية نقول: رحم الله وحيد حامد وغفر له، فإنسانيتنا وسماحتنا لا تقبل إلا بذلك أن ندعو حتى للمسيء، ولكل من اختلف معنا أو خالفناه، فجنة الله ليست حكرًا على أحد، ولا يملكها أي أحد سوي الله الكريم.

الأزهر يرثي مسيحيًا!

حينما كان الأستاذ محمد فريد وجدي يترأس تحرير مجلة الأزهر، في عهد الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي، قام برثاء جبرائيل باشا تقلا صاحب جريدة الأهرام لما مات، في صفحة كاملة من مجلة الأزهر، وهو عمل يشبه تمامًا ما فعله رشيد رضا حينما رثا جرجي زيدان، والذي ألمحت إليه سابقًا، مع الفارق الكبير بين الرجلين.

ونحن إن كنا قد انتقدنا الشيخ رشيد في هذا الرثاء، لأن من رثاه كان رجلا يضر بتاريخ أمتنا، ويعمل على تشويه رجاله ومعالمه، فإن الأمر يختلف بالنسبة لرثاء وجدي لجبرائيل تقلا، فكلا الأمرين يظهر سماحة الإسلام وتقديره للآخرين، ولكن ما حدث أثار ثائرة الذين لا يفهمون

مقاصد الأعمال وغاياتها من بعض الأزهريين؛ الذين استنكروا أن ينشر مثل هذا الرثاء لرجل مسيحي في المجلة المعبرة عن الأزهر، حصن الإسلام والناطقة بلسانه.

وهو ما دفعهم أن يرفعوا شكواهم إلى شيخ الأزهر المراغي، وقال له أحدهم: إن بعض علماء الأزهر ينتقلون إلى رحاب الله، فلم نر الأستاذ وجدي يخصهم بالرثاء كما فعل مع صاحب الأهرام.!

فابتسم الشيخ الأكبر وقال لمحاوره: أمعك مقال الأستاذ وجدي؟ قال: نعم قال هلم فاقرأ، فأخذ الشيخ يتلو المقال منفعلاً، وكان الشيخ الأكبر قد قرأه من قبل، حتى إذا بلغ القارئ منتصف القول، وهو في قمة انفعاله، قال له الشيخ سأقرأ أنا، ثم أخذ المجلة يتلو في جمال نبرة، وحسن إلقاء قول الأستاذ وجدي:

" إن الأزهر ومجلته لتشارك الأمة في أساها، وتذكر من فضائل الفقيد الكبير، ما كان يقابل به بحوث حضرات العلماء من الاحترام، ويحلها في أرفع مكانة من الأهرام، ولطالما نشر مقالات في موضوعات علمية بحتة، كان أولى بها المجلات، ولكنه كان يؤثر أن يكون عنوانًا للأزهر في أداء رسالته، وفي عهده الجديد، مما يدل على عنايته بهذه الناحية، أنه عندنا ثار جدال بين القائلين بجواز ترجمة معاني القرآن الكريم والذاهبين إلى تحريمها، وانتصر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبر الشيخ المراغي للقائلين بالجواز، نشر الأهرام بحثه في عدد واحد على طوله، ولم يكن فضيلته وقتها شيخًا للأزهر، فهذه النزعة الشريفة مضافة إلى الكثير من غيرها لا يصح أن تترك بدون تقدير وإعجاب، فلا غرو أن عُدت خسارة الآراء الحكيمة بموته فادحة، أحسن الله عزاء أسرته، وجعل من نجله خلفاً جديرًا بسلفه العظيم"

ثم قال الأستاذ المراغي متسائلاً: أفهمتم مرمى الجملة الأخيرة؟! إن الأستاذ وجدي يعرف أن الأهرام أقوى صحف العالم العربي، وأوسعها انتشارًا، ويخاف أن تتخلى عن طريقة صاحبها

الراحل في تشجيع المباحث الإسلامية، فأشار إلى الخلف باحتذاء السلف! فلو لم يكن له في مقاله غير هذا التوجيه لكان جديرًا بالثناء لا بالانتقاد!

وهنا تراجع المعترض قليلا ثم سأل: ولماذا لا يكتب الأستاذ وجدي عن الراحلين من العلماء الأزهريين كما يكتب عن صاحب الأهرام؟

فرد الشيخ بقوله: من الدارس الخبير لهؤلاء؟ أنتم أم الأستاذ وجدي؟ لقد سكتم فلم تكتبوا شيئًا وأنتم زملاء وأصدقاء، وألو خبرة بالقوم، أيلام الأستاذ وجدي إن سكت على قوم لا يعرف عنهم شيئاً؟ ولا تلامون وأنتم تعرفون كل شيء ثم تقصرون! كنت أفهم أن يقول أحدكم: كتبت مقالا في تاريخ فلان رحمه الله ثم حالت المجلة دون نشره! هنا يجب أن نسأل، وأعرف لم حُجب المقال؟ أما أن نلوم رجلا محدود الاتصال بالعلماء لأنه لم يكتب عنهم، ولا نلوم أنفسنا فكثير.

وأراد الإمام المراغي أن يغير وجهة النقد الصائب، فقال: لقد نشر فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون مقالا ممتازًا في صحيفة الأهرام، وذكر فيه أكثر مما ذكر الأستاذ وجدي، فلماذا لا تعترضون عليه إذن؟ لقد صادف مقال الأستاذ أبي العيون ارتياحي لأنه ينحو منحى مقال الأستاذ وجدي، فهل لديكم ما تقولون؟ وانتهى المجلس بالاعتذار.

وأمام هذه المناظرة العقلية والملحمة المنطقية أوضح المراغي ما في مقال وجدي من دعوة للتسامح وتقدير الأزهر لكل من يخدم العلم الشريف، حتى ولو كان من غير الملة، وهو فهم عميق لم يستطع الحرفيون أن يقفوا عليهم، حتى أعطاهم المراغي هذه المحاضرة في الوعي والفهم وطرق الإدراك.

صدمة أم قناعة؟

هزات عنيفة أو مواقف مؤثرة، أو قناعات عقلية، أو حقائق غائبة، هي التي تجعلك تُغير رأيك ومنهجك، وتُبدل مسارك، وتحول بُصلة اتجاهاتك الفكرية (180) درجة، إلى طريق آخر غير الذي كنت عليه.

من الخطأ الكبير أن تكون جاهلا وتبني رأيًا! عليك أولا أن تعرف أنك جاهل وتقر بهذا الجهل وتبدأ في إزالته، وتقرأ وتُلم بمن تجهل أمره، حتى يكون حكمك صائبًا نابعًا من علم حقيقي عميق، وأكثر أخطائنا في هذه الحياة، بل أكثر ضلالاتنا، إنما ترجع لنسياننا أننا غالبًا ما نكون جهلاء، واعتقادنا الواهم بأن عقولنا يمكنها أن تفتي في كل شيء، حتى ولو لم تتعلم أو تعرف وتهتدي إلى أي شيء.!

يقول الله تعالى: (وأهديك إلى ربك فتخشى)[4]

أي أن الهداية التي هي التعلم والمعرفة، هي التي ينتج عنها التصرف اللائق والسليم وهو الخشية، والتي لا يمكن أبدًا أن تتوفر بدون معرفة حقيقية.

هناك علماء أو مفكرون تحولوا من مذهب إلى مذهب، ومن فكر إلى فكر، ومن اتجاه إلى اتجاه، حسب ما ظهر لهم من حقائق قبلتها عقولهم، وأفقدتهم كل ما كانوا يؤمنون به من قبل من مقومات الانبهار والاقتناع.

أما أعظم انقلاب فكري في تاريخ الإسلام، فكان في تحول أبو الحسن الأشعري إلى مذهب أهل السنة والجماعة، معلنا براءته من مذهب المعتزلة، بعد أن كان رأسًا فيه والمُحاجج الأعظم عنه، بل بعد أن خدم الفكر المعتزلي 40 عامًا، ويذكر السبكي أن السبب في تحوله، يرجع لرؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في المنام يأمره بنُصرة السنة ويقول له: (يا علي انصر المذاهب المروية عني، فإنها

[4] -النازعات: 19

الحق) فتغيب عن الناس 15 يومًا ثم ظهر على منبر المسجد معلنا توجهه الجديد، وتحديه للاعتزال وطريقه وأنصاره.

وذكر السبكي: أن الأشعري كان بعد تحوله شديداً على المعتزلة، إذ أصبحوا يفرون من مواجهته وجداله، وأنه كان يناظرهم فيهزمهم ويأتي عليهم جميعا.!

وفي حياة الكثيرين نجد هذا التحول الرهيب من اليمن إلى اليسار، فالدكتور مصطفى محمود كان قد شط به الفكر إلى عالم الإلحاد في بداياته، حتى هداه الله واستقام عقله على إيمان كبير وعميق.

أما الذي كان تحوله قد قلب الدنيا وأحدث زلزالا كبيرًا وصدمة لشِلل الشيوعيين والعلمانيين في مصر، فهو تحول (خالد محمد خالد) الذي ابتدأ حياته بكتاب من هنا نبدأ، وكان مشبعًا بالفكر اليساري، فهللت له الدنيا وشغل الساحة الثقافية، لا لما في الكتاب من فكر ضد الإسلام، بقدر ما لأن خالد كان شيخًا أزهريا، أي أن الضربة جاءت للأزهر، خصمهم التاريخي، من أبنائه، وفي عرينه.

ولكن شاء الله أن يرجع خالد عن أفكاره ويؤلف كتابه الدولة في الإسلام، الذي أعلن فيه براءته مما كتب سالفًا.

وكان تحول سيد قطب تحولا خطيرًا بين الأدباء، فقد كان مقدرًا له أن يكون مثل الحكيم أو العقاد أو شاكر أو بدوي، لكنه لما سافر إلى أمريكا، ورأى حفاوتهم بمقتل حسن البنا، بدأ يفكر ويتأمل، وكان الإعلان عن إسلاميته الذي كان له صداه المدوي، وكان مكسبًا للصف الإسلامي.

كما لا ننسى أولئك الذين تحولوا من دياناتهم للإسلام، نابعًا تحولهم من تأمل فكري، أو إعجاب عقلي، أو لموقف غير الموازين والمفاهيم.

أما الذين حدثت لهم هزة آلمت نفوسهم، وحولت مسارهم، ولم يكن هذا التحول ناتجًا عن صيال فكري أو تأمل عقلي، فقد كان إحسان عبد القدوس كان نموذجًا جليًا لهذه الحالة، لقد كان

(إحسان عبد القدوس) هو الكاتب الأول في مصر في عهد الملك فاروق، وبدايات عهد انقلاب يوليو (52)، كان قلم إحسان ينفث نارًا ولهيبًا على خصومه، وكان ينتقد الجميع ولا يخشى شيئًا من تهديد واعتقال أو قضاء، كان إحسان هو الكاتب الوطني الأول في مصر، وكانت كبرى القضايا الوطنية، لا تكون كبرى ولا تأخذ مكانتها العامة بين الناس، إلا حينما يتناولها قلم إحسان، كان يُهاجم الملك هجومًا قاسيًا، ويهاجم الإنجليز هجومًا عنيفًا، وكان يهاجم النحاس باشا وحزبه هجوما أعنف، وكان الأخير يُسلط عليه صحف الوفد لتسبه بأقذع الشتائم والتهم.

وكان هذا في عهد فاروق والانجليز، فلما جاء عهد الطاغية ناصر، كتب إحسان مقالا تحت عنوان (الجمعية السرية التي تحكم مصر) ينتقد فيه الضباط وأسلوب الحكم، فأمر عبد الناصر باعتقاله شهرًا كاملا، ولقي في هذا الشهر معاملة سيئة، لم تكن تعذيبًا ولم تكن جلدًا أو حرمانًا من الطعام أو سحلا على الأرض، وإنما كانت مجرد سجن انفرادي، شعر معه إحسان بكل معاني الوحشة والغربة والألم في حياته، واستطاع هذا الشهر الكئيب أن يزلزل قلم إحسان، ويقتل حماسه للوطن في نفسه، فخرج من السجن وهو عازم أن يغير كيانه وتفكيره، ومن قبلهما يغير قلمه، فترك السياسة وعالمها، واتجه إلى الأدب والروايات، ومن وراء الكواليس، كان ناصر هو السبب في هذا التحول الذي أضر بالوطن، حينما أفقده قلما سياسيًا نزيها شريفًا جريئًا قويًا مثل قلم إحسان.

قفزة اللقطاء

مما لا شك فيه أن حيرة المرء الكبرى، حينما يجد شخصية مهملة لا قيمة لها ولا وزن ولا مقدار، في أي لون من ألوان الحياة، وفجأة تخترق عالم الصحافة والفكر والثقافة، وبلا أي مقدمات أو إرهاصات تظهر على الملأ بكتاب صاخب و صفحات مدوية تحدث ضجة كبيرة على المسرح الثقافي.

ثم ياليتها تتكلم في أمر عادي بما يتواءم مع بداياتها، ولكنها قامت أول ما قامت لتضرب بالقلم في القمة وتوغل بسنه في الصميم، وتصل إلى النهاية التي يصل إليها من خلفوا وراءهم عقودا من الثقافة والبحث والجدال والنقاش.

وهؤلاء أسميهم اللقطاء، من يبيعون أنفسهم ويتاجرون بأسمائهم ليستخدمها أصحاب الفكر المعادي والمنحرف للهوية الإسلامية، ليكونوا لها ضربة في مقتل.

كان آخرهم تلك الفتاة التي فشلت في حياتها الزوجية، وبعد أن كانت فقيرة معدمة، أصابها تغير كبير في حياتها لا يعرف أحد سره وبُعده، فخرجت علينا بصورة أخرى غير التي يحيكها عنها جوجل، فتركت موطنها وذهبت إلى القاهرة، ولا أحد يعلم أين ومتى وماذا حدث؟ لكن المهم أنها على رأي القائل تعرضت لعمل(صنفرة وسمكرة) ودهان(دوكو) لوجها وجسدها، وكان لابد من استخدامها كامرأة للحدث الثقافي المبتذل، فما لبثت حتى خرجت علينا بكتاب يتبنى الدعوة أو يجدد الدعوة لخلع الحجاب.!

والصُور العارية التي تظهر فيها المرأة، تدل على حالة من السقوط الأخلاقي الذريع، والتردي القيمي المتبرئ من العفة.

لكن الملفت في امرأة لا علاقة لها بالثقافة والفكر، غير أنها معقدة تحب الظهور والعري، فانساقت لهذه الدعوة كأقصر طريق للشهرة المدنسة بالهجوم على الدين والمتدينين.

المرأة لم يقتصر جورها الفكري على بُغض الدين وحده، وإنما تنامت لديها عقدة كبيرة نحو الفقر والفقراء، وكأنها تهين مرحلة بئيسة عاشتها من حياتها بما تدل عليه ملابسها القديمة.

وكان تصريحها اللاإنساني، والذي يدل على نفس خربة لا قيم فيها ولا ضمير ولا رحمة ولا مروءة ولا شفقة، ولا أي تأثير للثقافة والفكر، حينما قالت عن الضحايا المحروقين في محطة مصر:

"الأغنياء الوطنين الشرفاء أكثر شرفاً من الفقراء الذين يكرهون الوطن ويتعاونون مع الإرهاب" قالت هذا في الوقت الذي كانت مصر كلها تحترق كمدًا وحزنًا على المحروقين.

كنت أمام هذه القفزة الغريبة، ومن خلال استماعي للفتاة وحواراتها وطريقة عرضها وجدالها، جزمت بأن هذا الكتاب الذي طلعت علينا به، ليس كتابها، ولم تكتب فيه حرفًا واحدًا، ثم تبين لي بعد أيام صدق حدثي وتوقعي، حينما أخبرني صديق: بأن الناشر العلماني هو من كتب لها البحث بتشجيع من العلماني خالد منتصر، وتحالفوا جميعا لإظهار هذه القنبلة المدوية، والميلاد الجديد لهدى شعراوي.

ومن بعدها لم تكتب الفتاة شيئًا كما لم يثبت أنها كتبت من قبل شيئًا، وظلت إلى اليوم تعيش وتقتات على الكتاب الساقط، الذي كتبوه لها وصدروه باسمها.

وهذه الحادثة ليست الأولى في حرب الدين وقيمه وتعاليمه، ففي القرن الماضي كان كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق، الذي حار الناس في نسبته وكان من جملة هذه الآراء:

لم يكن علي عبد الرازق كما ذكر الباحثون إمامًا مجتهدًا، وإنما كان مجرد قاضي شرعي تلقفته قوى التغريب، فدعي إلى لندن لحضور حلقات عن الاستشراق والأفكار المعادية للإسلام، وأهدي إليه هذا الكتاب الذي وضع عليه اسمه مترجمًا للعربية، وأخذ الشيخ الكتاب فأصلح لغته وأضاف إليه بعض الأشعار والآيات القرآنية، وبعض الهوامش والفقرات كما يفعل السارق الماهر، من تغيير بعض ملامح المسروق، ثم أعلنه للناس على أنه من تأليفه، والجميع يعلم أنه من وضع المستشرق اليهودي مرجليوث.

والشيخ علي باعتراف الجميع، ضعيف في تحصيل العلوم، ولم يعرف من قبل أنه كان متمرسًا في الكتابة أو متدربًا على التأليف، حتى يكتب بهذا الأسلوب ويتعمد الطعن في الاسلام، لم يعرف

للشيخ من قبل مؤلفات أو مقالات قبل هذا الكتاب الذي هبط عليه بالباراشوت، اللهم إلا كتيبًا هينًا في اللغة وعلم البيان، وهذا هو كل إنتاجه بعد تخرجه من الأزهر بـ 14 عامًا.!

وبعد أن طرد الرجل من الأزهر، ظل منسيًا مهجورًا منقطعًا عن الحياة العامة، وباعترافه هو: أن الكتاب كان لعنة عليه وجر عليه كثيرًا من المشكلات.

وكان الطبيعي والمعهود لمن هذه دعوته وهذا فكره، أن يملأ الدنيا صخبًا ودويًا، فيعرض ويناقش ويرد ويجادل، لكن ما حدث كان قفزة غريبة مدهشة تثير الريب والشك.!

فلتذهب العائلة إلى الجحيم

في عام 1880، انقلب القارب الملكي التايلندي في طريقه إلى القصر الصيفي الملكي، والذي كان يحمل الملكة ساناندها كوماريراتانا ملكة تايلاند وزوجة راما الخامس، ومعها العديد من الخدم، في نهر تشاو فرايا، وبالرغم من تواجد الكثيرين في القارب، إلا أنه لم يحاول أحد من المتفرجين إنقاذها عند غرقها، لأن قوانين المملكة وقتها كانت تنص؛ على أن عقوبة لمس الملكة هو الإعدام.

وماتت الملكة وفقدت حياتها بسبب العادات، التي كان يمكن لها أن تنجو وبكل سهولة، لولم تكن موجودة.

هل يمكن لك أن تصدق أن هناك أقوام يقدسون التقاليد والعادات، أكثر من تقديسهم للشرع والدين والحق والصواب؟

أمرهم عجيب وأنت تراهم إذا ما وُضعوا في اختيار بين الحق والتقاليد، فإذا بهم يظاهرون التقاليد، وينصرون العادات، على الحق، حتى ولو كان هذا الحق هو الدين الذي يعتنقونه، ويتعبدون بكتابه ويسجدون لإلهه!

أقف في حيرة بالغة كلما قرأت شهادة الشيخ (أحمد حسن مسلم) من علماء الأزهر وعضو لجنة الفتوى فيه، حينما كان يعمل واعظًا في مركز بني مزار بالصعيد، واضطرته الظروف للنزول لبلدة أبو جرج موطن الشيخ علي عبد الرازق، والبيات فيها، ضيفًا على أسرتهم، وهناك التقى بالشيخ علي عبد الرازق صاحب كتاب (الإسلام وأصول الحكم) وبعد صلاة المغرب، لاحظ الشيخ مسلم على الشيخ علي أنه صلى ست ركعات بعد المغرب كنافلة، على عكس ما يعتاده الناس من صلاة ركعتين، وأن صلاته كانت قمة في الخشوع، فاقترب منه وسأله: كيف يكون حرصك على أداء السُنة بهذه الطريقة، وأنت مؤلف كتاب الإسلام وأصول الحكم؟ وهو كتاب عليه كثير من المآخذ التي تقدح في العقيدة؟!

وهنا يسكت الشيخ علي قليلا ثم يقول للشيخ مسلم: وهل أنا الذي ألفت هذا الكتاب؟ إنما ألفه الدكتور طه حسين!

فسأله مسلم: ولماذا نسبه إليك؟! فقال الشيخ عبد الرازق: لقد فاجأني بالكتاب وعليه اسمي، ولما سألته عن سبب ذلك، أجاب بقوله: لكي تكون لك شهرة عالمية، وذلك بعد أن تنقل عنك وسائل الإعلام الأجنبية والعالمية، وتتحدث عن هذا الكتاب وما به من فكر؟!!

فسأله الشيخ مسلم عن سبب كتمانه لهذه الحقيقة، خاصة بعد ما تعرض له من وراء هذا الكتاب، فكان رد الشيخ علي: إن أخلاقه أبت عليه أن يرفع قضية على صديق لعائلته، كما أن تقاليد العائلة تمنع من إحراج الضيف أو وضعه في موقف غير كريم"

وأمام هذا الكلام العجيب.. يتساءل المرء في نفسه: أي عائلة وأي تقاليد تعلو على حساب الحق والدين؟!

يُضرب الإسلام في صميمه وقيمه وثوابته، ثم يقول لك الشيخ: تقاليد العائلة وعادات الأسرة! ألا فليعلو الحق ولتذهب العائلة إلى الجحيم.

كان بعض الأسوياء قد عزم أن يدخل انتخابات المجلس التشريعي تابعًا لدائرة من الدوائر، فذهب لصديق له يعلم عنه أخلاقه ودينه وبغيته في الإصلاح، ولما طلب مؤازرته ووقفوفه بجواره، اعتذر له وقال: لا يمكن أن أخالف رأي العائلة وتوجهها، لأنها تُجمع على ترشيح عضو معين، قال ذلك وهو يعلم نزاهة صديقه ودينه وأخلاقه، التي لا يمتلك مرشح العائلة ربعها أو نصفها أو خمسها.

مرة أخرى: ألا فليعلو الحق ولتذهب العائلة إلى الجحيم.

لا زلت أتذكر ولا أنسى أبدًا، كيف تشاجر رجل من قريتي مع أحد المشاغبين، فلما ذهب واشتكاه إلى أحد أقربائه قال له: أعلم أنك على الحق، وأعلم أنه مخطئ، ولكن إذا حدث شجار وخلاف فأنا معه، ولست معك، لأنه من عائلتي ولا يمكن أن أقف أمام رجل من عائلتي.!

وهنا لا نجد تعليقًا للمرة الثالثة إلا أن نقول: ألا فليعلو الحق ولتذهب العائلة إلى الجحيم.

رجالنا أعظم من رجالهم

التغريبيون الذي نشأوا في بلادنا لا يرون لأمتهم أي فضل أو سمو أو تاريخ تليد، يمكن أن يتباهوا به، أو يوازن ما يفتنهم من حضارة الغرب.

إن لديهم إحساس داخلي بالعار والخزي، لأنهم ينتسبون لأمة العرب والمسلمين، وفي نظرهم كما صور لهم وظنوا ذلك، أنها أمة متخلفة متراجعة، تخاصم العلم والفكر والنور والإنسانية.!

ساهم الجهل بشكل كبير في رسم هذا التصور المغلوط، فالقوم لم يقرؤوا ولم يدرسوا ولم يطلعوا على شيء من عظمة أمتهم ورجالها وتاريخها ومجدها، في كل المجالات والميادين.

وإنك لتتعجب من أحدهم قرأ في كل شيء وعن كل شيء إلا الإسلام، ثم تجد الإسلام نفسه أول ما يفتي ويتكلم فيه بعقله أو بجهله.!

لقد وقف كثير من فرسان العربية ومفكريها، أمام هذه الموجة التغريبية التي تشكك الأمة في تراثها، وتُضعف إيمانها بهويتها، وأدركوا خطورتها، لو وقفوا مستسلمين دون أن يشمروا عن ساعد الجد، ليبرزوا تميز حضارتهم وسمات أمتهم وروعة رجالهم.

الانبهار بالغرب والغربيين ساق المتغربين أن ينبهروا بهم في كل شيء، ورفض تلك الدعوة التي تنادي أن نأخذ عنهم ما يناسبنا ونترك مالا يناسبنا، انبهروا بهم في تقدمهم ومدنيتهم وملابسهم ومآكلهم وطبائعهم، ومساكنهم وكلامهم وأدبهم وثقافتهم، حتى في ماديتهم وانحلالهم، وكان من أبرز ما أعجبهم وحرص الغرب نفسه على إبراز هذا الجانب هو عبقرية رجالهم، حتى يصوروا للعالم كله أن الصورة الكاملة للرجل زعيمًا ومفكرًا ومخترعًا وبطلا وزاهدًا وعالمًا وأديبًا ومفكرًا ومصلحًا وقائدًا، كانت في رجالهم الذين أتوا بخوارق السجايا التي لم تعرفها نفوس الرجال في كل حضارات الدنيا.

لقد أغرقوا بلادنا بسيرة رجالهم وتواريخهم وأعمالهم وبطولاتهم المترجمة، حتى صار القراء في الأجيال الماضية، لا يعرفون من أعلام الماضي إلا أعلام الغرب، وهو ما دفع عباس العقاد حينما لمس المنحدر، أن يؤلف سلسلة العبقريات ليقول للدنيا كلها: إن رجالنا أفضل من رجال الغرب، وأسمى وأرقى وأعلى شأنًا وأحسن سيرة وأجمل تاريخًا.. كانت عبقريات العقاد تهدف في غرضها كشف الحقيقة، ورد هذه الموجة العاتية من تأليه رجال الغرب، ومحاولة لبث الثقة في نفوس العرب والمسلمين، ليعلموا أنهم أجدر من الغرب في هذا الميدان.. ميدان العظماء.

لم يكن العقاد وحده من عملوا على هذه الخريطة، وإنما كان هناك جنود كُثر على هذا المنوال، لم يتوانوا جهدًا في تزكية تراثنا وإبراز معالم العظمة في رجالنا، وكان من هؤلاء أحمد زكي باشا شيخ العروبة، الذي كان له الفضل في إحياء التراث العربي بعد عقود من الضياع والاندثار.

كان الرجل بعد عميق بحث، وتوغل قراءة ودرس، تبين له عظمة العرب وتفوقهم في كثير من السمات، وسبقهم في كثير من الأعمال، وكان رحمه الله لا يترك مناسبة يتحدث أحدهم فيها عن فضل الغرب، حتى ينبري له بخطأ ما ذكر، ويبرز له أن العرب كان لهم الفضل والسبق عليهم.

وكان من هذا رده على ما جاء في الصحف من أن المسيو بونكاريه رئيس الجمهورية الفرنسية، أثناء زيارته لعاصمة الأنفليشين أي لوندرة، استقبل عشرين وفدًا من طوائف الانجليز ورجالاتهم المعدودين، وكلهم قدم له خطبة للترحيب بمقدمه إلى بلادهم، فأجاب كل خطبة بعبارة من الشكر تخالف ما أجبا به الأخرى.

وهنا أسرع زكي باشا إلى نشر فصل كامل في جريدة فرنسية تصدر في الإسكندرية، وهي جريدة النوفيل، بين فيه سبق العرب في هذا الميدان، وأن الوزير ابن زيدون، فعل أكثر من هذا، فيما أورده ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة في محاسن الجزيرة، أي جزيرة الأندلس، فقد روى أن الوزير كان قائمًا في جنازة بعض حرمه، والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم، فما سمع يجيب بما أجبا به غيره، لسعة ميدانه، وحضور جنانه، قال الصفدي: وهذا من التوسع في العبارة والقدرة على التفنن في أساليب الكلام، وهو أمر صعب إلى الغاية، وأقل ما كان في تلك الجنازة وهو وزير ، ألف رئيس مما يتعين أن يشكر له، فيحتاج في هذا المقام إلى ألف عبارة مضمونها الشكر، وهذا كثير إلى الغاية.

ثم ذكر زكي باشا أن عبقرية ابن زيدون، تفوق ما فعل الرئيس الفرنسي، فقد كان ابن زيدون في عزاء وفقد وقلب مكلوم قد لا يسعف عقله بالتفكير، أما الرئيس الفرنسي ففي موقف تهنئة وهو فرق كبير بين الموقفين، ولم يكتف زكي باشا بما أورد، فقد اندفع ليذكر شواهد أخرى في نفس المجال لعباقرة العرب الذين فعلوا من هذا الفعل، فكانت سابقة للعرب على غيرهم، كالحريري والخطيب بن نباته، والصلاح الصفدي.

لقد ساق زكي باشا هذه الشواهد كما صرح لأولي النهى من الإفرنج الجاهلين أو المتجاهلين، والمصريين المتفرنجين، ليعلموا أن في اللغة العربية كنوزًا لمن يطلبها، وذخائر تجعل لها ولأهلها فخرًا باقيًا.!

إن القوم يباهون الدنيا بالحديث عن قادتهم العسكريين، ويصدعوننا كل حين بالإسكندر وفتوحاته، بينما يأتي سعد ليحقق في دنيا الفتح والقتال، مالم يحققه بطلهم الكبير، إذ يُعد سعد أعظم قائد عسكري عرفته الدنيا، حينما تحطمت على يديه أعظم قوة في العالم، وزلزل عرش دولة كبرى، واجتاح عاصمتها وصدع أركان عرشها، وهو مالم يستطع الاسكندر ذاته، أن يحلم ببلوغه.

الشرقاوي له رأي آخر

قال لي تلميذي وهو مضطرب حائر: إنهم يا أستاذي يثيرون اليوم جلبة كبيرة ويتحدثون عن ابن تيمية حديثًا مروعًا ويتهمونه باتهامات شنيعة، وينسبون إليه تكفير الناس وقتل الأبرياء.

ونحن حقًا جاهلون بحقيقة الرجل، ولكننا لا يسعنا إلا أن نصدق أو نميل إلى ما يقال خاصة وأنهم يستشهدون بأقوال تنسب إليه.

لكن رابني شيء يا أستاذي حينما استمعت إليك مرة، وأنت تتكلم عن الصوفية وتدافع عن المعتدلين منهم، وتستشهد بابن تيمية، الذي كان يحترم المعتدلين من شيوخهم ويشيد بعلمهم ومكانتهم، في كتبه وفتاويه، وقارنت بين ما تقول وما بين ما يردده أتباع السلفيين الذين يرون ابن تيمية نهاية الرأي وإمام الأئمة، ويقدمون قوله على كل الأقوال، لقد تبين لي وقتها أنهم لا يأخذون من كلام الرجل إلا ما يوافق هواهم وطباعهم القاسية، وكذلك كانت تفعل جماعات الجهاد والتكفير والهجرة، وغيرهم من المتشددين، ولعل هذا المسلك هو ما دفع تيارات التغريب

والعلمانية أن تتخذ من ابن تيمية موقفًا عدائيًا، وتشن عليه حملاتها وغاراتها، في كل زمان ومكان، ظنًا منها وجهلا، أنه أساس التشدد ومنبع الإرهاب.

أستاذي الحبيب أرجو منك أن لا تمل مني، فأنا فعلا مضطرب متشكك محتار، لا أعرف أين الحق وأين الصواب؟ حتى صفحات الانترنت، بها من يمدح وبها من يسئ، وأنا أريدك أن ترشدني لكتاب يحكي بجلاء حقيقة الرجل، حتى أبني رأيي على علم وبصيرة.!

لكني يا أستاذي، لي إليك طلب، فأنا لا أريد منك أن تعطيني كتابا لعالم دين أو داعية من الدعاة، أو باحثا في الشريعة، فلن يكون هؤلاء إلا أن ينتصفوا لابن تيمية ولا يرون فيه أي نقيصة، أنا أريد شيئا آخر لا أعرف، لكنني أريد كتابًا لكائن من الناس لا ينتسب للسلفيين أو العلماء الباحثين، أريد كتابًا خارج هذه الدائرة، ليقول في الرجل قولة الحق.

بهذا الحوار خاطبني تلميذي، الذي اعتلته الريبة والغشاوة، فلم يعرف أين الطريق وأين السبيل إلى الحق؟!

فاستلقيته بنفس صابرة، وحوار هادئ، وقلت له: أتفهم كل ما تقول وأبصر غايتك وغرضك وعندي جوابك بإذن الله، ففرح وانفرجت أساريره، فقلت له: هل تسمع عن الكاتب (عبد الرحمن الشرقاوي) فقال لي: لعلك تقصد ذلك الأديب الذي كتب رواية الأرض التي مثلت فيلمًا سينمائيًا شهيرًا؟ فقلت له: نعم بالضبط، ومن الجيد أنك تعرفه.

فقال لي: نعم يا أستاذي وما علاقة هذا الرجل بابن تيمية وهو من قامات الأدباء في الجيل الذهبي، جيل العقاد وطه حسين والمازني، وكان في درجتهم وألمعيتهم، حتى أنني سمعت أنه كان شيوعيًا يساريًا.؟ بل مما أتذكره بقوة، أن القائمين على معرض الكتاب جعلوه شخصية المعرض في عام 2018

قلت: إن العلاقة وثيقة جدًا فقد تفرد هذا الرجل من بين أدباء هذا الجيل الموهوب، بعمل مبهر وثمين لم يتناوله غيره من الأدباء الذين كتبوا في الاسلاميات، وقد كان هذا العمل من أروع ما قدم إلى المكتبة الإسلامية والأدبية، وكان عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية وقد سماه (الفقيه المعذب ابن تيمية)، وهو أول كتاب يحكي سيرة ابن تيمية بأسلوب الأديب، بل أول كتاب يتناوله مفكر تنويري لحياة ابن تيمية، فيجلي فيه معالم الروعة وصور الجمال ما غفلته الأجيال عن سيرة هذا العملاق الكبير.

لا شك أن الكتاب سيفيدك كثيرًا، وهو تحديدًا ما طلبت، فليس الشرقاوي من السلفيين أو الباحثين الشرعيين أو من علماء الدين حتى تقرأ عن ابن تيمية بتصور مختلف ولهجة نوعية.!

قال تلميذي: شوقتني يا أستاذي فيا ترى كيف يتناول الشرقاوي سيرة ابن تيمية، وكيف كتب عنه؟

قلت له: لا أريد أن أحرق عليك شوقك وقراءتك، ولكن في عجالة سريعة، رأيت الشرقاوي وهو يكتب عن ابن تيمية، يكتب ولم يكن فيه باله، ولم يدر في مخايله، هذا الهراء الذي يُرددنه اليوم، والأكاذيب البالية التي تنسج حول هذا الرجل العملاق، لأن نظرة الشرقاوي المفكر الأديب، كانت أروع وأوسع وأعمق وأشمل وأدق وأرحب وأنصف من ضعاف العقول الذين يرددون اليوم شبهة الإرهاب والتكفير، وينسبونها لهذا الرمز الشامخ في دنيا الإسلام.!

كان الشرقاوي يركز على مكامن العظمة في سر هذه الشخصية التي تعددت ألوان البطولة في حياتها، ففوق العلم الذاخر والحافظة الألمعية، كان الرجل حاملا لهموم أمته، كما كان حاملا لهموم دينه، فنذر نفسه لقضية التحرير في كل المجالات، تحرير العقل بالفتيا والقلم، وتحرير البلاد بالسيف والنزال، وتحرير الدين مما ألصق به من جهالات وبدع وشركيات.!

أبان لنا الشرقاوي أن ابن تيمية، لم يكن مجرد عالم دين عادي ينكفئ على كتابه ومسجده وعمامته، بل أقبل على الحياة وهو يتمثل صورة الصحابة الذين كانوا عبادًا في الليل وفرسانا بالنهار.

نذر ابن تيمية نفسه وحياته لحرب كل شر ملأ حياة المسلمين، ومحو كل سوء تنخر في كيان دنياهم، حارب الجور في السلاطين الظالمين، والخونة المرتشين الفاسدين، حارب العلماء المنبطحين الذين يشترون رضاء الناس والسادة والأمراء، على حساب دينهم وشرف شريعتهم، حارب الصوفية المبتدعة التي لوثت حقيقة الإسلام ونشرت سمومها في كل مكان، بعيدًا عن الحق والاتباع والنور، حارب الفلاسفة وأنصارهم، ممن لوثوا البيئة الإسلامية بأقوال تخالف الدين الذي، ويريدون أن يستدلوا على مقوماته برأي الفلسفة، فعاركهم وهدم بنيانهم من قواعده، حارب الشيعة الحشاشين الذين اعتصموا بالجبال، وألّهوا عليا رضي الله عنه، فجاهدهم كما يجاهد الأعداء المشركين، حماية لسلامة العقيدة والدين.

كان حربًا على الباطل بكل صوره وأشكاله وألوانه، لم تلن له قناة، ولم تخف له عزيمة، ولم يخمد له حماس، ومن ثم لا نتعجب أبدًا، إذا كان للرجل أعداءً كعدد شعر الرأس، لا يحصون ولا يعدون، بداية من رأس الدولة، حتى العامة الجهلاء، الذين يؤمنون وراء السلطان والصوفية وعلماء السوء.

لا نعجب أبدًا لحجم هذا العداء، إذا علمنا أن الرجل قد قدر له أن يضع نفسه في هذا الخندق الملتهب، وأقام نفسه على هذا الثغر الذي لا تخمد فيه العواصف.

كان الرجل حرًا جريئًا شجاعًا لا يخشى في الحق شيئًا، وحينما نصحته أمه بالتروي خوفًا من مكر الحاقدين وحسدهم له، كان قولته المُصدعة لبنيان الزمان:

أترضين لي أن أسكت على باطل، أفترضين لي الدنية في ديني؟

يقول أبو حفص البزار: "ولم يزل المبتدعون أهل الأهواء، وآكلوا الدنيا بالدين، متعاضدين، متناصرين في عدوانه، باذلين وسعهم بالسعي في الفتك به، متخرصين عليه الكذب الصراح، مختلقين عليه، وناسبين إليه ما لم يقله ولم ينقله، ولم يوجد له به خط، ولا وجد له فيه تصنيف ولا فتوى، ولا سمع منه في مجلس"

أظهر الشرقاوي مما أظهر من جمال ابن تيمية وعظمته، أنه كان يفني حياته من أجل الناس وتحقيق مصالحهم، مهما تحمل من العنت والمشاق، ومهما كابد في سبيل ذلك الأهوال والنوازل، ويتحمل في ذلك مسؤوليته كعالم وولي أمر، يسأله الله يوم القيامة عن واجبه، فحينما جاءه رجل مسكين يشكو ظلم أحد الأمراء وقد جلده بالسوط وانتزع حقه، طالبه الرجل أن يشفع له ويرد عليه ما سلبه الأمير منه، وكشف عن ظهره ليرى ابن تيمية أثر الجلد والعذاب، ولكن تلاميذه نصحوه أن يبتعد عن ذلك، ليتجنب غضب الطاغية ومهانته، فقال لهم شامخًا صامدًا: من يخاف الله لا يبالي بالجبارين العتاة، ومازال الرجل بالأمير المعتدي حتى رد الحق للضعيف المسكين.

ومن البديع يا تلميذي ومن الجميل والمؤثر، أنك حينما تطالع كتاب الشرقاوي عن ابن تيمية، تدرك من بين السطور، كيف عشق هذا الكاتب التنويري شخصية ابن تيمية وامتزج بها، واستلهم روحه؟ فكان يكتب عنه بإحساس ظاهر، وحب متدفق، ولعمري.. إنها صورة أو سطور المنصف المحقق، لا صاحب الهوى والغرض.

كما أنه كتاب استطاع صاحبه أن يبرز في صفحاته صورة الإنسان القدوة، والنموذج الأسمى في كل شيء، في الدين والدعوة والعلم والاجتهاد وحب الوطن ورعاية الضعفاء والاهتمام بمصالح الناس، وطلب الحرية والتحرر من العبودية، بل كان النموذج في صورة القائد العسكري الذي يقود المعارك مسلحًا بالإيمان قبل اللسان.

يعد عمل الشرقاوي الذي تفرد به بين أدباء الجيل المصريين الشامخين، درة في عرض حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، وإظهار بطولته التي غاب عنها اليوم من جهلوا قيمته، وألصقوا به تهما هو منها براء، فالرجل لم يكن إرهابيًا ولم يكن تكفيريًا، ومن زعم هذا فقد افترى عليه إثما كبيرًا، ومن صدق هذا بجهله، فقد زاد الطين بلة.!

إن العصر الذي عاشه ابن تيمية كان عصرًا مريعًا يموج بالأحداث والفتن والحروب والعدوان والتآمر والخيانة وسواد الجهل والبدع والمنكرات، والتجني على الدين الذي أوشكت ملامحه الحقة أن تضعف وتزول، فجاهد الرجل بفكره وقلمه، وكانت فتاويه وأقواله التي ردت كل بلايا هذا العصر الشائك، والتي كان بعضها له ظروفه وحيثياته الخاصة، والتي لا يمكن أبدا اجتزاء بعضها وإسقاطه على العصر الحاضر، فيسوء الفهم ويضل العقل، ويظلم الرجل وينسب إليه مالم يقله.

قال تلميذي: ولكن عقلي يحار وهو يُسائلني يا أستاذي، ويقول لي: لماذا هذا الكتاب مجهول مغمور رغم شهرة صاحبه وذيوع صيته؟

قلت لتلميذي: من سيظهره إذن؟ السلفيون الذين لا يرون كاتبًا غير كتابهم، وعالما إلا علمائهم، أم التنويريين الذين يفجعهم كتاب الشرقاوي، ويحاولون إخفاءه والتعمية عليه وكتمه عن الوجود؟!!

يابني إن الأمة الكبيرة الناضجة الواعية، هي التي تحمي عظماءها ورموزها من زيوف الجهلة وتهم المتآمرين، واجبنا أن نحيي سيرة الرجل ونظهر حقيقة فكره الرصين، وعلمه ورأيه الذي مثل بصمة ظاهرة في تاريخ تراثنا وهويتنا.

النظرة الإيجابية

النظرة الإيجابية في كثير من الأشياء والرؤى، قد لا يمتلكها إلا إنسان كبير الفكر واسع التأمل عظيم العقل بعيد النظر حسن التقييم.

نعم.. فليست كل الأمور في الحياة تسير على طريق واحد، أو تقاس بنظرية الأبيض أو الأسود، وإنما بالنظر والتقييم بين المكسب والخسارة، وهناك فقه الموازنات الذي يجب تعلمه، وإدراك حكمته، والذي يعقد فصوله مقارنةً بين المفاسد والمفاسد، والمصالح والمصالح، والمفاسد والمصالح، ولعل نظرتنا الايجابية التي نتناولها ونتحدث عنها الآن، تتعلق بالمقارنة بين المصالح والمفاسد، فقد تكون هناك مفسدة بين كثير من المصالح، وقد تكون هناك مصلحة بين ركام من المفاسد، وهو ما يستدعي عقلا حكيمًا يناقش ويتأمل ويعتبر ويقرر ويحكم ثم يختار.

أحد شيوخنا الأماجد عرضت عليه مجلة منحلة، غير ملتزمة أن يكتب فيها مقالا دوريًا، فعاب عليه أصدقاؤه وتلاميذه هذه الخطوة، لكن الرجل له عقل الحكيم، رأى في هذه الخطوة مصلحة عظيمة، حينما يتطلع إلى فكره ونصائحه الدينية، جمهور هذه المجلة الذي يفتقد الالتزام، ويعاني الجهل بالدين ولا يلتاك روح التدين.

وحينما ظهر كتاب مختارات من تفسير القرطبي لتوفيق الحكيم، كتب مفكرنا الكبير أنور الجندي في كتابه إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الاسلام: "وبالرغم من أن توفيق الحكيم قد لخص تفسير القرطبي، وظن بعض من يأخذون بظواهر الأمور أنه في الطريق للتعرف إلى الإسلام، إلا أنه لم يلبث أن كشف عن تلك المحاولة المسمومة التي تطالب بتطوير الشريعة الاسلامية"

والحق أن حكمنا على المحاولة يتخطى الرجل نفسه، والذي قد يعتقد كثير منا أنه لا أمل منه، لكن نظرتنا تبصر هذه الجماهير الشغوفة بكتبه، والتي لا تقترب من أي كتاب ديني يتناول قيم

الإسلام، ولعل اسم توفيق الحكيم، يكون جاذبًا لها أن تتعرف على قبس من نور هذا الدين، حينما تشاهد وتقرأ وتعايش هذه المختارات النورانية من تفسير القرطبي.

وحينما قام شيخ الأزهر مؤخرًا في نقاشه الجسور الذي اغتال فيه الدكتور الخشت وصرعه فكريًا، كنت تشعر وقتها كمتدين بانتصار الفكر الاسلامي على الفكر الحداثي ورموزه، لكن طائفة منا، لم تنس ولم تغفل تاريخ شيخ الأزهر السياسي، وجعلت منه طريقًا لاستقلال ما فعله والاستهتار بما أنجزه، وأن هذا السجال وهم وهباء لا قيمة له، ونحن نقدر ما يرمون إليه، وهم يريدون من الرجل أن يكون كالعز بن عبد السلام أو ابن تيمية، لكنه بعيد عن صفات هذه النجوم، ولا ينال أبدًا ما نالت من تعظيم في نفوس المسلمين، لاختلاف الظروف والعصر والأوضاع، لكنه شيئًا طيبًا ما صنعه، ويحسب للإسلام قبل أن يحسب لشخصه هو، فالانتصار للتراث والفكر الإسلامي قد تحقق، ولا يهمنا على يد من تحقق.

وفي أيام ناصر ظهرت الدعوة للفكر القومي، وحاولت تفسير كل شيء من مفاخر المسلمين على أنه قومي وعربي وليس إسلاميا، ولم يكن كثير من الغيورين على الدين من علمائه ومفكريه يستطيعون أن يتكلموا، وإلا تعرضوا للتنكيل من النظام والقوميين، الذين سيطروا على كل شيء في مجالات الثقافة والتوجيه والاعلام، ومن ثم رأى هؤلاء الحكماء، أن يكتبوا عن أبطال الإسلام، كطريق للتعريف بهؤلاء العظماء، حتى ولو تم تقديمهم بصورة قومية، فلا مانع من أن تكتب على الغلاف (فلان الفلاني البطل العربي الكبير) وفي الداخل تكتب ما تريد عن تأثره بالدين وتأثير الدين عليه، وانطلاق حركته باسم الإسلام.

يستنكر كثيرون مظاهر العري والغرام والقومية في فيلم صلاح الدين الأيوبي، لكنني أنظر فيه لكثير من الإيجابيات التي توقظ العقل المسلم أو العربي، بما يحاك له من مؤامرات صليبية، تطمع في بلاده، وتريد محو وجوده، بل تعرف بهذا التاريخ الدموي العدواني للحملات الصليبية،

وأوقن أن الفيلم في جملته يبث كثيرًا من المفاهيم المغلوطة، ويشوه الصورة، ويظهر الحقيقة بنمط زائف، لكنه قد يبعث من الرسائل المهمة التي لا يمكن إغفالها.

ولعل كلامي هذا سيكون منكورًا من الصداميين، الذين لا يؤمنون في حياتهم بالصورة الرمادية، ويختارون نمط حياتهم على طريق واحد، لا يقبلون بأي كسب قد يأتي به طريق ملتو، وهؤلاء بعيدون جدًا في نظري عن ضغوط الحياة وظروفها، التي لا تترك الحرية لأصحاب الفكر الرصين أن يعلنوا غايتهم، وأنه لابد من العمل بحكمة وتدبير، حتى يصل صوتك، الحكمة والذكاء والمواراة أمور لا ينكرها ديننا.

فقه التعامل مع الأعلام

من المألوف والمعروف عناية المستشرقين والغربيين وولعهم بتراثنا وكتبنا وأسفار علمائنا وعطاء حضارتنا، لقد بذلوا الغالي والنفيس في تحصيل الكثير من هذا التراث، وصاروا وحدهم من يملكونه، وأخذوا في ترجمة الكثير منه، وتعريفنا نحن المسلمين به، وكانت لهم في ذلك جهود جبارة وخارقة، ولاشك أن كثيرًا منهم تعامل مع هذا التراث بالروح الصليبية، فكان بعيدًا كل البعد عن النزاهة والموضوعية والإنصاف، إلا أن بعضهم كان منصفًا وأعطى حضارتنا ورجالنا حقهم دون نقصان.!

وهذا الولع بالتراث شيء طبيعي، لأن نفوسهم تعشق البحث، وتهيم بالعلم، وتوغل في المعرفة والدراسة لطبائع الأمم وعادات الشعوب وأديانهم، لكن الشيء الأغرب أن يقدروا رجالنا وينبهروا بزعمائنا وقادتنا الذين كانت لهم بصماتهم على جبين الزمن.

في الكتاب الشهير الذي وضعه عالم الفيزياء والفلكي الأمريكي مايكل هارت، تحت عنوان الخالدون مائة، جاء سيدنا محمد ﷺ رقم 1 في القائمة، وقد ذاع صيت الكتاب وانتشر، وحققت مبيعاته رقما هائلا، ووضع قائمة مؤلفه وقفا لمجموعة من الضوابط والمعايير الصارمة، ليحوز نبينا التقدير الأول على كل رجال العالم.

ولا شك أن من يراجع أقوال الغربيين والشرقيين من العظماء والنابهين في نبينا ﷺ ومسيرته، فإنهم سيرون ما يدهش الألباب، فرغم عداء مللهم للإسلام، إلا أن بعضهم لم يسعه سوى الإنصاف والإقرار بالحق، ومنذ أيام قرأت نظرة الأوروبيين لسيدنا سعد بن أبي وقاص، حين عدوه من أكبر قادة الجيوش في العالم، لأنه الوحيد الذي تمكن من هدم ملك فارس، وفتح عاصمتهم التي لم يستطع قائد في الدنيا أن يقربها ممن حارب الفرس.. حتى الإسكندر بجلال قدره، وعظيم شأنه في دنيا الفتوح والحروب، لم يستطع أن يقربها.

إن هناك فقه يتقنه الغرب في التعامل مع العظماء، حين يدركون أن هؤلاء العظماء إنما هم لبنة في بناء حضارتهم، ومن ثم لابد أن يعتنوا بها ويجملوها حتى تظل زاهية براقة، ترمز لتلك الحضارة التي يفاخرون بها الأمم، وقد علمت أن ابن سينا كان باطنيًا قرمطيًا وقد أوجب علماء الإسلام لعنه، وكذلك الجاحظ كان معتزليًا مارقًا، ورغم هذا أرجو وفي هذا الزمان خاصة، أن تكون لنا نظرة خاصة لأمثال هؤلاء النابهين العباقرة، فلماذا لا ننحي الجانب العقدي جانبًا، ونعتز بهم لانتمائهم لحضارتنا فيضافون إلى سلسلة المجد التي تميزنا وتشيد بنا وبتحضرنا؟ لماذا لا نجعل منهما ورقة نكسب بها بعض الجولات في صراعنا مع الغرب، الذي يحاول جاهدًا نفينا وإفناءنا من الوجود؟!

هناك قوم بارعون للتقليب في صفحات الماضي، واستخراج الهنات وتضخيم أمرها، حتى لا يكون شيئا مذكورًا غيرها، وهؤلاء يتصرفون بجهل يؤذي الأمة في مسار كفاحها، ويعوق انتصارها، ويهدر دفاعها في سبيل وجودها.!

يقول الشيخ الغزالي رحمه الله:

" أذكر أن بابا روما الأسبق مات عقب مرض ألم به، فألف طبيبه الخاص رسالة لا أدري ما فيها عن حياته الخاصة، فصودرت الرسالة، وفصل الطبيب من النقابة، وانتهت حياته الاجتماعية، وقد ألفت عشرات الكتب عن (نابليون) تنوه بأمجاده وتتواصي بالسكوت عن غدره وشذوذه وخسته، القوم إن رأوا من عظائمهم خيرًا أذاعوه وإن رأوا شرًا دفنوه! أما نحن فمبدعون في تضخيم الآفات إن وجدت، واختلافها إن لم يكن لها وجود، والنتيجة أنه لن يكون لنا تاريخ.

وقد نظرت إلي علماء الدين الذين تناولوا الأفغاني بالسوء فرأيتهم يحيون في إطار نظم تتبع الاستعمار الشرقي أو الغربي، وأنهم في مواجهته ومواجهة سماسرته خرجوا بالصمت عن لا ونعم"

انظر هنا إلى هذا الثائر العظيم الذي لقب بموقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، والذي ينتمي لأمتنا ويعتز العقلاء منها بهذا الإنتماء، لكن قومًا من التيارات الحَرفية خدعتهم دعاوى الصليبيين التي رددها لويس عوض، وكانت تهيل الأكاذيب على الرجل العبقري، حتى يُفقروا أمتنا فلا يكون منها ولا فيها، مثل هذا الرجل الذي أقض مضاجع الإستعمار، وأيقظ الشعوب وغرس بذور الحرية في بلاد الإسلام المخدرة، إنه جمال الدين الأفغاني الذي عرف الغرب قيمته، حينما أهلنا نحن التراب على قامته العالية.!

يقول أحمد أمين في زعماء الإصلاح:" قصدت الآستانة سنة (1928م) بعد وفاته بإحدى وثلاثين سنة، فرأيت واجبا أن أزور قبر هذا الرجل العظيم، وأستعيد عنده ذكرى عظمته وسلسلة من أعماله، فسألت عنه الكثير فلم يعرفه، ورأيت رجلا أفغانيًا يعمل خازنًا لمكتبة الشهيد علي، فوصف لي مكانه، فذهبت مع صديقي العبادي عصر يوم الأحد 8 يوليو إلى (ماجقة) أو (متشكة) فوجدت في ربوة على مدخل البوسفور، مقبرة قد انتشرت فيها المدافن، ودلنا شيخ المقبرة على مدفن السيد، فعلمنا أن قبره كان قد تشعث ولم يعن به أحد، وكادت تضيع معالمه، ولم يفكر فيه أحد من أهل الشرق، الذين أفنى فيهم حياته، إنما ذكره مستشرق أمريكي حضر إلى الآستانة سنة (1926م) ونقب عن قبره حتى وجده، فبنى عليه تركيبة جميلة من الرخام، وأحاطها بسور من حديد، وكتب على أحد وجوه التركيبة اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته، وفي وجه آخر من التركيبة ترجم يقول: أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في أنحاء العالم، الخبير الأمريكاني المستر شارلس كرين سنة 1926م"

حقًا إنها الأمة التي تهدم عظماءها.. تمامًا كتلك الدابة التي تقتل صاحبها.

انتصر بأدب

ماذا لو رأيت أمامك من يسب وطنك ويشين بلدك، ثم وجدت قرينًا لك وقد أخذته الحمية فثار عليه وسبه بأقزع الألفاظ، ورد عليه بفاحش الكلمات؟

لا شك أنك وقتها وكل من يرون هذا المشهد، سيحكمون على هذا الثائر، أنه وطني حُر، وفتى بارًا أنجبه هذا الوطن.

لكنني والحق يقال، لي نظرة أخرى وتقييم مختلف، فإنني حينما أرى الأدب ينهدم، والخلق تتداعى ركائزة، لا قيمة وقتها عندي لأي شئ، فمن لا يدرك قيمة الأدب ومقام الفضيلة، لا يدرك معنى الوطنية، ويمكن لك باختبار يسير أن تبصر حقيقة هذه المشاعر الوطنية الزائفة، في نفس هذا الثائر الصفيق وأمثاله، فما عليك إلا أن تقول له وتخبره: بأن الوطن يحتاج منه أن يتبرع بجزء من ماله، أو أن يضحي في سبيله بجزء من جسده، ساعتها فقط سوف تملأ شدقيك بالضحك، وأنت تجلس متمددًا على أريكة الساخرين، لأن هذه الثورة وهذه العصبية، ستتحول إلى رماد هش تعصف به حفنة يسيرة من الهواء، أو تُؤول كما وصف القرآن إلى هباء منثور.

الفضائيات اليوم تعج بإعلاميين، لا صنعة لهم إلا السباب واللعان، حتى تتخيل أن قلوبهم شعلة من الوطنية، ولكنهم كذَبة أفاقين، لا تعنيهم إلا مصالحهم الذاتية، ومطامعهم الشخصية، ويحتاجون لجرعات ثقيلة من الأدب، حتى لا يُلقوا في وجدان الناس هذا السقوط المريع.

لقد جاءني هذا الخاطر وأنا أقرأ كتاب فيض الخاطر للكاتب الكبير (أحمد أمين) وفي مقالة من الكتاب تحت عنوان (صفحة سوداء) أخذ الراحل يستعرض ذلك التاريخ الذي شان مصر والمصريين، وذكر من أخلاقهم ما يعيب أهلها ويذم سكانها، وينسب لهم الجبن الدعة والرقة والمزلة، لقد كتب المؤرخون كلامًا تخجل منه الأجيال المصرية في كل عقد وزمان، وأبهرني في الرجل، أنه كان مهذبًا حكيمًا عاقلا راشدًا، كان يناقش كل الشبهات والتهم، ويرد عليها ويقابلها

ببعضها، ويظهر نقاط تناقضها، لم يسب ويلعن، أو يطنطن بشعارات زائفة، لا تعبر إلا عن عصبية جوفاء، لقد حفظ مقام كل عالم ومؤرخ، نسب لبلادة نسبة لا تليق، فمنهم ابن خلدون والمقريزي والسيوطي، كلهم نسبوا الذلة والرقة والجبن لمصر والمصريين.

ولعل هذا هو الذي دفع بعض الوضاعين، أن يروجوا لحديث مكذوب بأن جند مصر هم خير أجناد الأرض، وهو قول باطل لا تصح نسبته إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد رد أمين على ابن خلدون، بأنه كانت فيه حدة الطباع، وكان ينظر بها للمصرين لأنهم طباعهم لينة، فحكم بطبعه على طبعهم، ورد على المقريزي بأن قوله متناقض حينما ذكر أن بعض المصريين أبطال شجعان، وأن منهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبرأه من الشرور، فكيف إذن يستقيم الفهم، وتقبل القاعدة الشذوذ؟ فالقواعد التي وفرت الجبن والزلة والرضا بالضيم في المصريين لا تستثني أحدًا.

ثم لفت أمين في رده، إلى سحر التربية وقوتها وقدرتها على تغيير الطباع، فهي أقوى بكثير من قوى الطبيعة.

كما رد فرية فرعون حينما قيل: إنه لما خرج، خرج معه أشراف القوم وعلية الناس، ولم يتبق إلا العبيد الأزلاء، فقال أمين: إن المصريين قد نزل بين أظهرهم كثير من سادة الروم والعرب والترك، ذابوا في مصر واختلطوا بأهلها، فلم يغلب الذل العزة، وعهدنا دومًا غلبة الأعزاء.

ردود علمية، وحوارات منطقية، بعيدة كلها عن اللعن والسب، والتطاول وسوء الخلق، وتسفيه الخصوم.

ما أجدرنا أن نتعلم الأدب كثيرًا، حتى تتوجه مشاعرنا وعواطفنا في سياج بهي من الأخلاق السامية.

ولله در شوقي:

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا** فليس وراءها للعز ركن

محنة الذوق العام

أذكر أنني لا أحب غناء الست أم كلثوم، ولا أحب صوتها ولا أتناغم معه، اللهم إلا في النذر اليسير من بعض أغانيها الوطنية، ولكن يال داهية الدواهي، لو أعلنت هذا الرأي ورددت هذه المشاعر بين بعض الناس، لأجد ألسنة تتهمني بقلة الذوق ورداءة السماع، والجهل في فهم الغناء الأصيل، وربما اتهمني بعضهم بأنني مختل العقل، لا أفهم أي شيء، ومن ثم لابد أن أكتم هذا الرأي في نفسي، حتى لا أجافي الذوق العام.

الذوق العام؛ يقر ويعلن أن عبد الناصر زعيم وملهم بطل عظيم ومنقذ المصريين، بينما رأيي أنه طاغية جبار وزعيم مهزوم، لكنني بين الجماهير، أخشى الإعلان عن هذا الرأي، لأنه سيناقض الذوق العام، الذي شكله الإعلام، وأحسته الجماهير التي لا يحكم الوعي والعلم والمعرفة حياتها، أو يُسّير عقولها.

عانينا كثيراً ونحن نوضح للأمة أن طه حسين؛ كان في فكره ومؤلفاته حربًا على الله ورسوله، ولكن للأسف.. لا يصدقنا الناس ويناطحوننا في إعلاننا، لأن الذوق العام والثقافة العامة التي شكلتها الدولة عبر مؤسساتها التعليمية، تقضي بأن طه عظيم من العظماء وأديب الأدباء، وأن أي إنسان يهاجمه أو ينتقده، عدو للعقل والعلم، بل وربما متطر ف الفكر، إرهابي المزاج.!

منذ أيام كتبت جملة آمنت بها، ورأيت فيها ميزان العقل الكامل، وكانت كما قلت فيها: (كما يوجد شيء اسمه اختلاف الأذواق، كذلك يوجد شيء اسمه الذوق العام)

ولقد كنت أشير بهذه الجملة، إلى صراع كبير نجده في الحياة، بين وجهات النظر المختلفة والآراء المتباينة، وأنه مهما كان اختلافها، إلا أنها لابد أن تخضع أو تراعي ما يُسمى بالذوق العام.

ولكني حينما أعملت الفكر، وجدت أن القضية أخطر وأكبر من ذلك بكثير، فلقد كنا ننادي أن يكون المرء حرًا في رأيه وتعبيره ونظره، لا يرهب شيئا ولا يخشى معترضًا، ولا يهاب ناقدًا، ولا يعير مخالفًا أي اهتمام، فالمهم أن يعبر عما يجيش في صدره من آراء ووجهات نظر وميول وأهواء.

ولكن قبل أن يكون حرًا بهذا المعنى، يجب أن يعرف أنه حينما يصطدم رأيه مع الذوق العام، فإنه سيجر على نفسه ويلات وويلات، بل موجات وموجات من النقد والذم والتسفيه والتقليل.. حتى وإن ناصره البعض، فلن يغنوا عنه شيئا، أو يدفعوا عنه تهمة، لأن الذوق العام له سطوة طاغية وهالة جاسمة، والذين يناطحون الذوق العام، ولا يسمحون له أن يعوق أو يكتم أو يحجز آراءهم، لا أعرف هل أصفهم بأنهم أحرار، أم أتهمهم بأنهم يفتقدون الحكمة؟!

والذين ينسجمون مع الذوق العام ويكبتون نظرتهم للأشياء خوفًا منه، لا أعرف هل أتهمهم بأنهم جبناء أم أصفهم بأنهم حكماء؟!

ربما تؤمن ويؤمن معك فصيل كبير، بأن العقاد أسلوبه معقد وخال من الروح، وفيه تقعر شديد، لكن من الأفضل أن لا تُعبر عن هذا أو تصرح به، خشية أن يصطدم مع الذوق العام، الذي يقرر أن العقاد عملاق، من الجيد وأنت تشعر أن كتب محمد أحمد الراشد، ثقيلة على النفس، وأسلوبها مُشتت، أن لا تعبر عن هذا الشعور، وإلا أخرجك قومك عن الملة، لا لأنك نقدت أسلوب كاتب، ولكن لأن هذا الكاتب محسوب على تيار ديني.

مجتمعاتنا دائماً تقيم وزنا وهالة للذوق العام، ولا تسمح لأحد أن يخترقه أو ينقلب عليه في شيء، حتى في عقول المثقفين، الذين يفترض أنهم أحرار الفكر، إلا أن طبيعتهم المجتمعية التي نشؤوا عليها لا تفارقهم، حتى لو كانوا فلاسفة.

أما المجتمعات الغربية، فإن لها انطباع آخر، فلا شيء يعترض حريتك ورأيك وفكرك، وحتى شذوذك، لأن الحرية لها قدسية أقوى من قدسية الذوق العام.

في بعض المؤسسات لا تستطيع أن ترتدي ما تريد من لباس تشعر فيه بالراحة والانبساط، لأن الجو كله في مناخ رسمي، يفرض عليك الانضباط بالبدلة ورباط العنق، وهو الذوق العام الذي يحرمك حتى من راحة الجسد.

ثم هناك نقطة مهمة، وهي فساد الذوق العام وصلاحه، فليس معنى أنه الذوق العام لغالبية المواطنين، أنه يكون الحق والصواب.

لأن هذه الجماهير العريضة، يمكن جداً أن يكون قد شَيدت ذوقها، وتكونت عناصره، على باطل وجهل وخطأ.. ومن ثم يعافها الذوق السليم، وهذا ما تراه في القطاع العام والطوائف الشعبية من الناس، التي تستلذ بأغان هابطة وتقوم على الضجيج والكلمات القبيحة السيئة، ذلك لأن ذوقهم العام، أقامهم مناخه، على تقبل هذه النوعية من الكلمات، وأهل آذانهم لسماع هذا اللون من الموسيقى.. والتي لا يمكن أبدًا لصاحب الذوق السليم، أن يشعر معها وفيها بأي متعة أو لذة وانسجام.

إن الذوق العام محنة كبيرة لذوي العقول، إما أن يجاروه أو يعترضوا عليه، وفي كلا الأمرين شر، فالأولى يعاني المرء من وأد حريته، والثانية يُعاني المرء من سفه المعترضين وطعن الطاعنين.

إن الأمة التي تريد أن تنهض، لابد أن ينهض ذوقها العام، الذي يصلح كثيراً من مواطن عطبها وفسادها، فتقوم بإصلاحه وتهذيبه وترقيته عبر برامج وخطط ونقاشات وإجراءات، يمكن لها أن تغيره، فهو ليس قدس الأقداس، أو له ثبوت الأهرام.

السلفيون يطفئون الإبداع

الفكر السلفي في نظر بعض السلفيين له نكهته الخاصة، عن الفكر السلفي في تصور ومنهج أي جماعة إسلامية أو اتجاه ديني آخر.

فالجميع ينبثق من هذا السلف العظيم وينتسبون إليه، لكن السلفية المعاصرة لها كما قلت: تذوقها الخاص.

فمن معالم التصور السلفي المعاصر عند بعضهم، أنه تصور مأفون منغلق قاتم متقوقع، يُعطي صورة مرهبة ومرجفة عن الحياة في ظل الإسلام، فهو يقتل الإبداع ويقف في وجه أي تطور، أو ما يستأنسه الناس من حياتهم، بحجة أن كل شيء لابد أن يكون لله وبالله.

منذ أيام رفض صديق لي قراءة السير الذاتية والتراجم لبعض الأدباء والمفكرين، بحجة أنها مضيعة للوقت وسفه لا يرضي الله تعالى، ومن قبله رأيت رسالة يعرضها صديق أديب، وقد وجهها له سلفي متشدد، يحذره فيها من كتابة القصص والروايات الأدبية، لأنه منحى بعيد عن هداية الله تعالى، والصواب أن يعكف ليل نهار على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

والحق أن وجود هذه الجملة العظيمة المقدسة (كتاب الله وسنة نبيه) تضع الكثيرين في حرج كبير، فلو أنه دافع عن موهبته أو رغبته وترويحه عن نفسه، لاتهمه الخصم، أو قام هو باتهام نفسه بأنه يصد عن كتاب الله وسنته نبيه، والحق أن هذا الموضوع حرج جداً ، وقد ترددت كثيراً قبل الكتابة فيه، لكنني مؤمن إيمانًا قويًا أن الاسلام يسع الحياة بكل مباهجها وفنونها، بل يسع كل رغبات الإنسان، وييسر ويتيح له فعلها مادت في الخير والبر، هو ما منح قلمي الجرأة على خوض هذا الموضوع ونقاشه وصد أدعيائه.. ما المشكلة أن أكتب رواية أو قصة تحمل كثيراً من المبادئ والقيم التي تُلهم الناس الخير والإنسانية، وتعلمهم كيف يكونوا إيجابيين مسالمين هادفين نافعين؟

سيخرج السلفي المعقد ليقول لي: إن في القرآن الكفاية والهداية... وأنا أعلم ذلك أيها المتحذلق، ولكننا هنا نتحدث عن موهبة في جوف هذا الكاتب وذاك المؤلف.. لابد له أن يظهرها ويُنميها ويعبر عنها بإبداعاته، فما الضير من ذلك والمانع منه.؟!

في حياة كل إنسان تجارب ومواقف وإفادات وعجائب، ما المانع أن أقرأ فيها لأتعرف على تجاربهم وأزيد من معارفي وأملأ حصيلتي بتجارب الآخرين؟

حتى إذا تحدثت يوماً جمعت ألوان الحديث المختلفة بجوار النمط الديني.

أذكر أن الشيخ الغزالي رحمه الله قال مرة: إنني حينما خطبت للناس في المسجد تحدثت عن كل شيء في الدين، ولم أجد نفسي إلا أن أحدث الناس عن أمور أخرى، فحدثتهم عن أينشتين والنظريات العلمية.

ربما يمكن لك أن تعيب علي لو انصرفت في هذا التيار منجرفًا لاهيًا، متناسيًا قيمي وأخلاقي، وأنا بعيد تمام البعد عن كتاب الله وسنة نبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه، لكن الحياة لابد فيها من التنوع والتزود والمعرفة، وفرق كبير بين كتب الهداية وكتب المعرفة، والقرآن الكريم على ما فيه من المعارف العظيمة، فهو كتاب هداية في المقام الأول، لكن المعرفة لها مشاربها المتعددة التي تستهوي كل فرد فينا بلون مختلف من ألوانها.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: روِّحوا القلوبَ ساعةً بساعةٍ "

ومما ينسب لعلي كرم الله وجهه: " روحوا عن أنفسكم ساعه بعد ساعه، فان القلوب اذا كلت عميت"

ويقول كذلك: "إن للقلوب إقبالا وإدبارًا ونشاطًا وفتورًا، فإذا أقبلت بصرت وفهمت، وإذا أدبرت كلت وملت"

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أملحونا وروحونا.. يقصد أرووا لنا بعضًا من ملح العرب وطرائفهم، لكي ترتاح نفوسهم بشيء من الطرائف تجعلهم يبتسمون أو يضحكون.

لا أعرف لماذا أشعر وأنا أكتب هذا الكلام، أنني أتجنى على القرآن الكريم، أو أصد عن سبيل الله تعالى، وأنني أنحى منحى الشياطين، ولعل هذا من آثار تهويل هذا التيار الذي أوهمنا أن هذه السُبل فسوق عن منهج الله، لكنني مؤمن أن أي موهبة وأي إبداع يمكن أن أجعل من سبله نصرًا لله ولدينه، حينما أسخره لنشر القيم والتقاط المعارف التي تخدم ديني وتدعم رسالتي.

سر يمينًا ويسارًا واصعد شمالا وجنوبًا، فمادام الله تعالى في قلبك وعملك، فلا تخشى شيئًا وأنت على الطريق القويم.

اقرأ ما شئت من القصص والروايات، واروي غلة مواهبك بالكتابة في الفنون والعلوم، لكن ابحث دومًا في عقلك، كيف يمكن خدمة الله تعالى ودينه بما تهوى وما تُبدع؟ .

وهنا فقط تستطيع أن تخرج من تخلف هذا القطاع الذي يُظلم حياتنا بفكره المنغلق، الذي يريد عزلنا عن الحياة كلها.

ولعل هذه هي المشكلة التي عانت منها التيارات الدينية قديمًا، حينما تفوق الشيوعيون والعلمانيون في مجالات الأدب والفن والرواية والإعلام، يجارون الوضع والتوجه العالمي، بينما الإسلاميون متخندقون في الكتاتيب، عاكفون على الحواشي.. العالم من حولهم يتسابق في نطاح مستعر لقيادة الدنيا، وهم في منطقة الذيل متخاذلون متأخرون.

الأخرون تصدروا المناصب والمواقع، وهم ضعاف منزوون منعزلون، حتى توارى صوتهم، واحتجب نداؤهم، وجلبوا الخسارة لدينهم.

لعل هناك ما لا يروقك

هو لون جديد من الفهم والإدراك، قد يفعله كثيرون عن جهل، وتفعله قلة عن علم، وقد تكبر من يفعله عن علم ويشتط غضبك ممن يفعله عن جهل!

بين الإكبار والامتهان، والخلاف والاتفاق، ترى كثيرون يدورون في فلك هذه المعادلة، كل له فيها قناعاته أو أهواءه التي يبني عليها وينطلق منها، إن كل إنسان يؤخذ منه ويرد، ولا معصوم غير النبوة، لكن هناك عقولا تتعصب لبعض الأئمة والمفكرين في كل رأي وكل مذهب، لا يتخيلون أبدًا أنهم أخطأوا في شيء، ولا يمكن أن يخطئوا في شيء، وكأنهم ملائكة أو أنبياء معصومون.

فإذا ما عرضناهم لبعض آراء هؤلاء الذين يعظمون كلامهم في بعض المسلمات لديهم، نجدهم يعتريهم تخبط عظيم، يدور بهم في دوامة الجهل، ويلح عليهم أن يتركوا هذا التعصب وينحوه جانبًا في دنيا الفكر والفقه والرأي.

إنها قطاعات عريضة من كل الألوان والأفكار والقناعات والتوجهات والمذاهب، تحيي هذه العصبية وتعيش عليها، ولا يمكن أن تتخلى عنها أو تناقش بدونها.

انظر مثلا هؤلاء العلمانيين في بلادنا، الذين يعظمون الإمام محمد عبده، ويجعلونه رائد البعث العلماني، وأيقونة الفكر الحر، وفي ذات الوقت يصبون جام غضبهم على الخلافة العثمانية، ويسمونها بالاحتلال، ويصورونها بكل صفة بشعة مزرية، بينما غاب عنهم رأي الإمام في تأييده لهذه الخلافة، التي كان يعدها من صور العقيدة بعد الإيمان بالله.

انظر مثلا لمن يعظمون طه حسين، ويرون فيه فلتة زمانه، ويحيون أدبه في كل وقت، ولا يصدقون عليه أي شائبة، إذا أخبرتهم يومًا أنه قال من ضمن ما قال: إذا كان الإسلام حائلا بيننا وبين فرعونيتنا فعلينا أن ننبذه.

وهذا رجل يعشق محمد الغزالي، ويخيل إليه أنه مبعوث العقل الكامل والرؤية الصادقة، وعلى جهة أخرى يخسف بجمال الدين الأفغاني وتلميذه إلى سابع أرض، ويراهم من جواسيس

الماسونية المتآمرين على الإسلام، فإذا قلنا له: إن الغزالي أشاد بالرجلين وبرأهما مما نسب إليهما، وجعلهما نواة البعث للصحوة الدينية، رأيناه يضطرب في خلل شديد.

قوم يرون توفيق الحكيم آية من آيات الشيطان، وداعية من دعاة التغريب، وعقلية جاهلة بقيم الإسلام، يوصون الغادي والرائح بحرق كتبه واتهامها بالسفه، بينما نطالعهم بما يصدعهم حينما نسألهم: هل نحرق كتابه مختارات من تفسير القرطبي، ومسرحيته (محمد صلى الله عليه وسلم) في السيرة النبوية؟!

قوم يرون الشيخ الشعراوي وليًا من أولياء الله، ويتعاملون مع أقواله وتوجهاته، بأنها الحق الذي لا مرية فيه، والصواب الذي لا صواب بعده، ترى ألسنتهم تنعقد وأعينهم تتوارى، حينما نخبرهم أن الشعراوي كان يمجد سيد قطب الذي يرونه في صف المتطرفين، بل ويستشهد بتفسيره وأقواله في دروسه.

قوم يعظمون طريق الصوفية، ويرونه بمفهومهم طريق الله الذي لا ينازع السياسة أهلها، ولا يعرفون عنه إلا أنه المسالمة المفرطة، والعزلة البالغة، وكأننا نحدثهم عن مذهب مختلف، حينما نذكر لهم حال الصوفية المجاهدة، التي كانت تهب من محاريب الذكر لساحات القتال مجاهدة في سبيل الله.

لابد إذن من طريق وسط، ورؤية عادلة، وتقييم موضوعي، يفرض معه نبذ العصبية للأشخاص والآراء، والإيمان بأن كل إنسان وكل طريق، يؤخذ منه ويرد، وأن هناك مالا يروقك من الأقوال والأفعال، إذا كان قائلها وفاعلها ممن يتعصب لهم عقلك، وينتصر لهم فؤادك.

لا تُضحك القراء عليك!

ستظل تلك الكلمات التي حدثني بها مدربي في فن كتابة المقال، حكمة خالدة لا يمكن أبدًا أن أنساها أو أتغافل عنها، مهما طال الزمان وتباعدت الأيام، حينما قال لنا في دورته: (اتعب على مقالك حتى لا تضحك القراء عليك!)

ولما سألناه عن معنى التعب المقصود قال: أن تذاكر وتتحقق تتصفح وتراجع وتبحث عن المعلومات اللازمة، حتى تصقل مقالك فيصير قويًا دسمًا هادفا معبرًا مفيدًا.

ومن يومها وأنا لا أكتب مقالا، حتى أحاول التحقق من كل شيء فيه، وأغرق نفسي في البحث، حتى أجمع فيه ما يصقله ويجلب معه احترام القارئ وتقديره، وهو يشعر أنه يستفيد ويضيف إلى معارفه كل يوم شيئًا جديدًا، ويجنبني ضحكه وسخريته.

وربما أحيانًا أذكر بعض المعلومات والاستشهادات والدلائل دون الرجوع إلى مصدرها، فيتوهم بعض القراء المشاغبين أنني لا أعرف مصدرها ولا من أين نبعت؟ فيبادر بسؤاله ظنًا منه أنني سأقع في دائرة الاحراج، ولكنه لا يلبث إلا قليلا حتى آتيه بالمصدر المطلوب، الذي جاء منه هذا الاستشهاد أو ذاك الدليل.

كل هذا بفضل ذلك المحاضر الذي عرفنا هذه الحكمة، ورهبنا من نتائجها المخيفة، وهي سخرية الناس وضحكهم على الكاتب.

شيء كبير ومحبط ويصيب صاحب القلم باليأس العنيف، حينما يضحك عليك قارئ، أو يتندر بجهلك وقلة معرفتك، ربما يضيف إليك ما خفي عنك، فذلك مقبول ومتاح، لأن العلم ليس له كبير، أما أن يُخطئك ويبرز جهلك وتقصيرك في المعرفة والبحث والدقة، فذلك مالا يطاق، وكذلك أيضًا قد تكون هناك مسائل معقدة في العلم، لا يدرك المرء غورها، ولكنه يتحدث عنها ويخطئ، ويأتي هناك من يلفته إلى هذا الخطأ، فهذا أيضًا له عذره المقبول لوعورة المسألة، وخفاء

دقائقها على أولي الألباب، لكن أن تكون أمورًا بدهية وثوابت معلومة، وتتجنى عليها أو تولغ فيها بالغلط والخطأ، فهنا لا عذر لك، حين تستحق العقاب الكبير الذي نبه عليه مدربنا، وهو ضحك القارئ عليك!

بل المصيبة الكبرى لهؤلاء الذين يجعلون من أنفسهم قادة التنوير ودعاة التحضر، وهم يوغلون في العداء لدينهم وملتهم وتراثهم ويهاجمون ثوابته ويحطون من قدر رموزه، فتراهم يهرفون بما لا يعرفون، ويتأولون نصوص الدين عن جهل كبير، ويقرؤون في كتبه وهم يتوقون للشبهات، بلا دراية أو فهم، بل يأتي بعضهم ليجتزئ النصوص، ولم يتابع نصفها الثاني، الذي يرد ما تريب منه واستهواه في النصف الأول على طريقة (ولا تقربوا الصلاة).

وهكذا يغطون في جهل عميق وضلال سحيق، ولو أنهم كلفوا أنفسهم السؤال والاستفسار، لانجلى لهم الحق، وتبين لهم مالم يكونوا يفقهون!

ونأسف كثيرًا لتمادي كثير من هؤلاء في طريقهم، لأن صوتهم وأقلامهم تجد لها من يروج إفكها في الصحف والفضائيات، بل نأسف أكثر لأنهم في أمة لا تقرأ، ولا تعرف حياة البحث، ومن ثم يسهل خداع الناس وتشكيكهم في دينهم وثوابتهم، مستغلين ضعف الصوت الإسلامي ومنابره، التي لا تقاوم هذا التضليل، ولا تشغل قضاياها به.

وإذا أردت أيها القارئ أن ترى نموذجًا تضحك عليه من كاتب له اسم رنان، أو حضور مكين، ويعد نفسه من قادة التنوير، ودعاة العقل والتحرر والفكر والمعرفة، فلا يسعنا إلا أن نذكرك بهذه الحادثة التي جرت بين المفكر الكبير دكتور محمد عمارة، والكاتب العلماني حسين أحمد أمين، حينما تناول الثاني حديثًا مبتورًا عن الصحابي الجليل سعد ابن أبي وقاص، فانتقص من قدره، وحط من مكانته، وشوه صورته، وهو من هو سبقًا وبلاء وجهادًا، بل من العشرة المبشرين بالجنة، وتُعده الدنيا من أعظم الفاتحين والقادة العسكريين، حين كتب الله علي يديه زوال دولة الفرس التي لم

يقو عليها أحد على مر التاريخ، حتى الاسكندر الأكبر نفسه، لم يستطع أن يقهر عاصمتهم المدائن التي تهاوت خائرة تحت ضربات سعد وسيفه وجيشه، لقد حوله حسين أمين إلى رجل لا يعدل إذا قضى، ولا إذا أقسم بين الناس ؟! بل جعله أيضا لا يحسن الصلاة، ثم جعل مرجعه وعنوانه في ذلك حديثًا منقولا برواياته وعنعناته، ليقول لنا: هذا هو سعد، وهذا هو الرمز، وهؤلاء هم الصحابة؟!ومن تراثكم وليس من كلام مستشرق أو متغرب!

وكان هذا الحديث الذي ساقه للناس حتى يفسد في تصوراتهم ووجدانهم صورة صحابي من أعظم الصحابة، حيث قال: عن جابر بن سمرة : شكا أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب فقالوا : إنه لا يحسن أن يصلي ، فبعث عمر رجالا يسألون عنه بالكوفة فقيل لهم : أما إذا نشدتمونا بالله، فإن سعدًا لا يعدل في القضية، ولا يقسم بالسوية، ولا يسير بالسرية" وأغلق الأقواس وانتهى الحديث الذي يقدم للمسلمين أسوأ صورة، وأسوأ شهادة قدمها أهل الكوفة وأدلوا بها في حق صحابي من كبار الصحابة، لقد كتب النص دون أن يثبت أي مرجع، حتى يصعب على الباحثين التحقق من الأمر.

إلى أن لقيه الدكتور عمارة يومًا في مكتبة الشروق، وسأله عن المرجع الذي جاء منه بهذا النص فقال له: طبقات ابن سعد، ولما رجع عمارة إلى مكتبته، قلب في الطبقات عن كل ما يخص سعدًا فلم يجد شيئًا، ولكن الحمية لم تدع له سبيلا إلى النوم، فظل يبحث في فهارس الأحاديث – وكان ذلك قبل ظهور الانترنت وصفحاته البحثية، التي تسهل الوصول إلى أي شيء– حتى وجد النص عند الشيخين، وفي موطأ مالك ومسند أحمد، وكانت المفاجأة المدوية المذهلة، بل كانت الفجيعة كما يقول الدكتور عمارة: في أمانة وعدالة حسين أحمد أمين، حينما كان النص الحقيقي شيئا آخر غير الذي أورده واقتص واجتزأ منه ما يحمل على الشبهة ويبعث على النقيصة، وكان الحديث الكامل على هذا النحو، عن جابر بن سمرة، رضي الله عنهما .

قال: شكا أهل الكوفة سعداً، يعني: ابن أبي وقاص – رضي الله عنه – إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فعزله واستعمل عليهم عمارًا، فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلي، فأرسل إليه فقال: يا أبا إسحاق، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي.

فقال: أما أنا والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا أخرم عنها، أصلي صلاة العشاء فأركد في الأوليين، وأخف في الأخريين، قال: ذلك الظن بك يا أبا إسحاق، وأرسل معه رجلاً – أو رجالاً – إلى الكوفة يسأل عنه أهل الكوفة، فلم يدع مسجداً إلا سأل عنه، ويثنون معروفًا، حتى دخل مسجداً لبني عبس، فقام رجل منهم، يقال له أسامة بن قتادة يكنى أبا سعدة، فقال: أما إذ نشدتنا، فإن سعداً كان لا يسير بالسرية ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية، قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً، قام رياء، وسمعة، فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن، وكان بعد ذلك إذا سئل يقول، شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد .

قال عبد الملك بن عمير الراوي عن جابر بن سمرة: فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطرق فيغمزهن.[5]

ويبقى السؤال الآن: هل كان حسين أمين جاهلا فعلا بالنص، أم أنه تعمد التضليل والتلبيس مستغلا جهل الناس؟

يقول الدكتور عمارة: "حالة من الفسوق الفكري قدمها أمين ليهدم رموز الإسلام، وليهدم أبطال حضارته، وليجرد الأمة من سلاحها وهي تخوض حرباً ضروسًا على العديد من الجبهات!"

[5] - متفق عليه

لكنني مع استنتاج الدكتور عمارة لمحاولة أمين وتفسيره الدقيق لجنايته، والذي أوافقه فيه بالطبع، ولا أنسى أهم شيء وهو أن تعرية عمارة لفعلة صاحبنا، أضحكتني عليه وأضحكت كل من قرؤوا سقطته، وهي الحكمة التي علمني إياها أستاذي في فن كتابة المقال.!

فليحذر كل كاتب أن يضحك عليه القارئ، لأنه شعور مُر ، وإحساس كئيب.!

الفصحى لغة الثورة والوطن

كتبت مؤخرًا مقالا عن العامية تحت عنوان (العامية لغة المفلسين) ولكن أحد القراء المحترمين لم يعجبه ما فيه، وكان رده علي: بأن العامية أنتجت جمالا، وأنها لغة الوطن والثورة والحياة والمجتمع، وتعد تمثيلا متجذرا للحضارة الفرعونية القديمة.

ثم ذكر بأن الوطن كان موجودًا وكان له شأنه العظيم قبل دخول العربية إليه، ولم يكن دخولها هو ولادة الوطن، كي تكون هي المرجع واللغة التي تزيح سوابقها من لغات العالم، وإنما هي حلقة من حلقات الثقافة الواردة.

وقال أيضًا في أسلوب راقي مهذب: لقد لعبت العامية دورًا مهمًا في تشكيل الوعي القومي والدعوة إلى الثورة أحيانًا، وفي أحيان أخرى إلى الالتفاف حول الرموز الوطنية، وكان لها بالغ الأثر على الشعب، خاصة شعرائها الذين تجاوزت إبداعاتهم أحمد شوقي وحافظ إبراهيم. الأبنودي ورامي ونجم وبيرم نموذجًا.

ثم وسمني المعقب بأنني أتجنى على العامية وغير منصف في تقديري لها!

والحق بأن ما ذكر الكاتب من إبداعات العامية التي كان لها تأثيرها أكثر مما أثرت الفصحى ورموزها، هو قول جلل، وخطب خطير، ومسألة الوطنية التي استدعاها الناقد لكلامي لتكون الحكم في الحوار هو استدعاء له بعده الفكري الذي ينطلق منه صاحبه، والذي يمكن أن يرجع لعدم الشعور القوي بالانتماء الإسلامي، أو التوغل المتين في دراسة العربية وأوجه جمالها، بل

يرجع بكل تأكيد إلى قلة النظر والبحث في سبل ووسائل ثورة الشارع المصري في عهوده الماضية، التي كانت أجيالها أكثر ثقافة وتذوقًا للعربية الفصحى من الجيل الحالي، وهو ما دعاهم لتلمسها في كل موطن.

والناظر في ثورتنا ونهضتنا يرى ويعرف، أنها لم تقم إلا بالفصحى، ولم يكن دعاة الحرية وزعماء الإصلاح يخاطبون المصريين إلا بالفصحى، لم يكن مصطفى كامل وسعد زغلول ينطق لسانهما إلا بالفصحى، ولم تكن خطبهم الرنانة المؤثرة إلا بالفصحى، ولم تكن جرائدهم التي أثرت في المصريين ووجهتهم إلا بالفصحى، ولم يقم كل هذا الكيان المعادي للاستعمار إلا بالفصحى، ولم يكن المفكرين الذين صنعوا ثقافة هذا الشعب وكونوا نواة وعيه، ينطقون إلا بالفصحى، ولم يكن الشعراء العظام الذين كانت تتهافت الأمة المصرية على إبداعهم إلا بالفصحى.

فكيف يقال: بأن تأثير العامية وإبداعها كان أشد من تأثير الفصحى؟

اذكر لي يا سيدي جريدة واحدة ممن شكلت وعي المصريين وتنتمي لأي حزب من الأحزاب، كانت تتكلم بالعامية، وترتضيها ذوقًا في توجيه الرأي العام المصري.. لن تجد طبعًا، حتى دعاة العامية أنفسهم، كان من سخفهم أن تقوم دعوتهم للعامية بمقالات العربية الفصحى.

إن الأبنودي ونجم وغيرهما، كانت لهم فعلا لفتات وأشعار عامية جميلة، ومن قبلهم النديم، تحمل النكتة والطرافة والمناورة، التي أبهرت العوام، لكنها لا يمكن أبدًا أن تضاهي الفصحى في عمقها ورونقها وشدة تأثيرها واستعذاب المصريين لمراميها وجمالها وحشد الرأي العام وتعبئة الجماهير كما كان للغة العرب.

إن لغتنا هي لغة العرب، وديننا هو دين العرب، وهويتنا هي هوية العرب، وليس معنى أنني ذبت في الحق وارتديت ثوبه، أنني قد ضاعت ملامحي وتبدد كياني، فالرجل حينما ينتقل لبيت أجمل

ومكان أرحب وهواء أنقى وبيئة أزكى، فقد أحسن لنفسه ولم يهنها، وكذلك نحن المصريين حينما ارتدينا ثوب الإسلام والعروبة والفصحى، فقد ارتدينا ثوب الجمال والحق.

إن العامية وفيها الكثرة الغزيرة من ألفاظ العربية، لا تعبر عن مصر القديمة وحضارتها في شيء، بل تعبر عن العرب في المقام الأول، وهي وإن كان قد اكتنفها بعض ألفاظ غير عربية، إلا أن النصيب الأوفى من ألفاظها كان للعربية، مما يعني أننا لو بحثنا عن الانتماء الحقيقي النابع من ملامح لغة المصريين، فلن يكون إلا للعربية التي صارت لنا الجذور والأصول، بل التي ترتبط بدين قويم، لا يرى في التزام لغته إلا دعما لعناصر بقائه وقوته فينا.

ثم تعالى أيها الكاتب لترى فزعي بما قلت لي، عن الوطن وشأنه وعظمته قبل دخول الفصحى، لأقول لك: أي وطن هذا الذي كان له شأن عظيم هو ولغته قبل دخول الفصحى عليه، لقد كانت الفصحى قرينة فتح عظيم أعاد للإنسان المصري كرامته وأدميته، بعدما ذاق العنت والجور على يد الطغاة الرومانيين، وهو ما دعا المصريين للولع بكل ما هو عربي، الدين والأخلاق والطباع، ومن قبلهم اللغة التي ينطق بها العرب، فإذا كان لأحد فضل على مصر والمصريين، فلن يكون غير العرب الذين أنقذوهم وأعزوهم وأوجدوا لهم كرامتهم، وحققوا فيهم معالم العدل والحرية والمساواة.

وأخيرًا لم أر بدًا من أنتهز هذه الفرصة، وأواجه بها محدثي لأقول له: ما الذي منعك مع كل هذا الإيمان العظيم بالعامية وجمالها، أن تخاطبني بها في ردك وتعقيبك، ثم تخاطبني بالعربية الفصحى؟! لا شك لأنك تعرف أنها لن تعبر عنك في شيء، ولن يكتسي تعبيرك بها إن حاولت، أي صورة أو لمحة من صور الجمال ولمحات البيان.

المحتوى

Contents

أرجوكم افهموني 1

مقدمة 3

خناجر الماضي 5

المراجعات المائعة 8

اللعب بورقة الهوية 10

أرجوكم ارتقوا بأفهامكم 13

لا يكادون يفقهون حديثًا 17

يا جماعة إنه بشر! 20

خدعة التخلف الحضاري 22

العبرة بالخواتيم 24

رسالة إلى الإسلاميين 28

عدوة الوطن 32

الثقافة والسلطان 35

حائر بين الرأي والقيم 37

المعتزلة ليسوا كفارًا 39

علمانيون ينصفون الإسلام 41

حرب الرمزية الشرسة 44

زمن العلمانيين البرابرة 46

تذكروا الله في إبداعكم 50

لا تخوضوا في غير ميدانكم 52

وحيد حامد بين الجنة والنار 57

الأزهر يرثي مسيحيًا! 60

صدمة أم قناعة؟ 63

قفزة اللقطاء 65

فلتذهب العائلة إلى الجحيم 68

رجالنا أعظم من رجالهم 70

الشرقاوي له رأي آخر 73

النظرة الإيجابية 79

فقه التعامل مع الأعلام 81

انتصر بأدب 84

محنة الذوق العام 86

السلفيون يطفئون الإبداع 88

لعل هناك ما لا يروقك 91
لا تضحك القراء عليك! 94